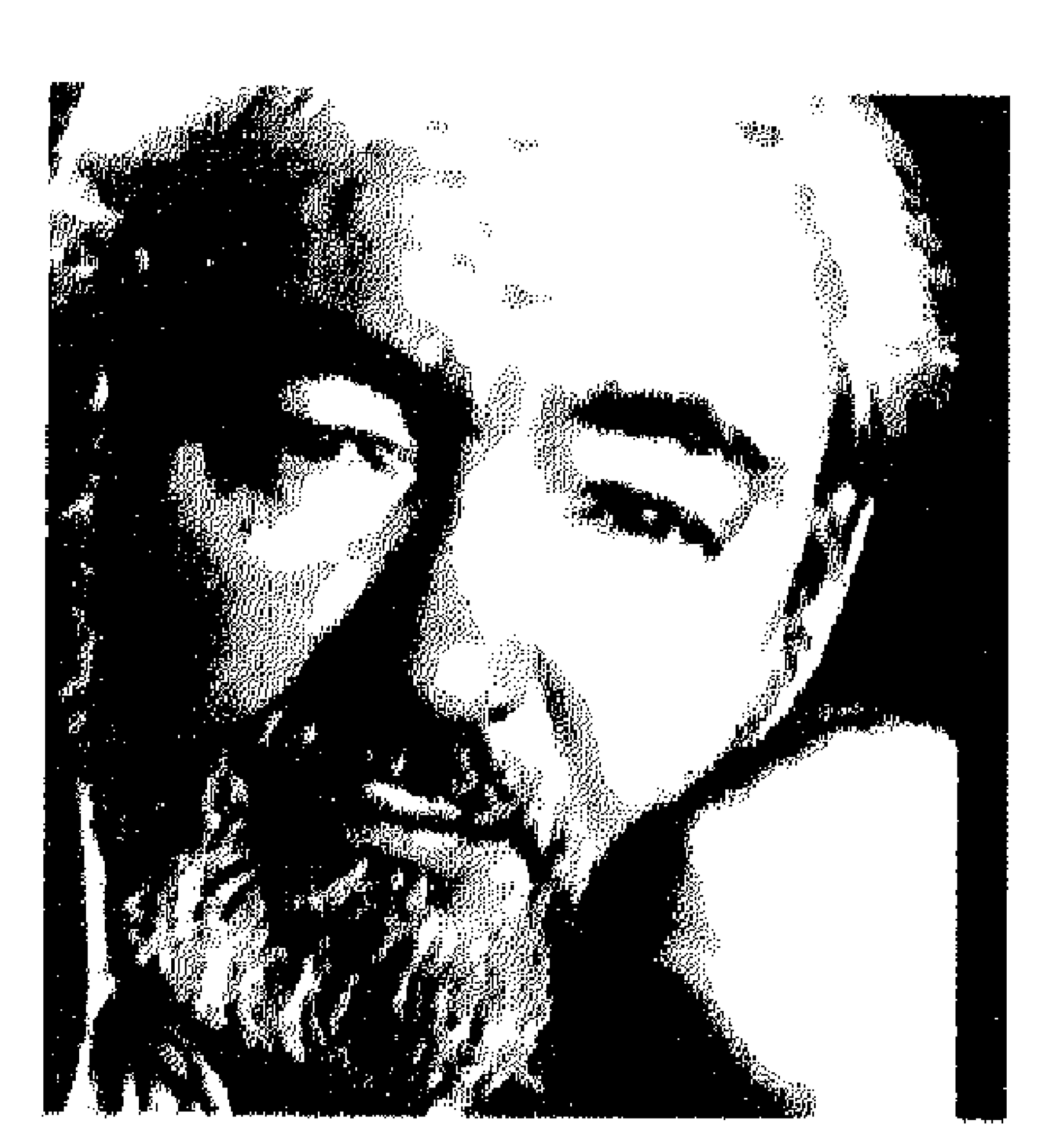
فريدريك تريستان

دوّامة المجانين

ترجمة

سهيل أبو فخر





Frédérick Tristan

فريدريك تريستان أديب كلاسيكي معاصر. ولد عام 1931 في مدينة سيدان الفرنسية. تنقل بين لاوس وفيتنام والصين بين أعوام 1964-1986. حائز على عدة جوائز أدبية مهمة، منها جائزة غونكور Goncourt عام 1983، عن روايته The Perplexe.

من أعماله:

Murdered Orpheus, 1948
Birth of a ghost, 1969
The God of the flies, 1959
Monkey equal of Heaven, 1972
The Ash and Lightning, 1982
The Perplexed, 1983
The reversal of the glove, 1990
The Last Laugh, 1993
The Enigma of the Vatican, 1995
Stephanie Phanistée, 1997

دوامة المجانين

Frédérick Tristan

Le manège des fous

فريدريك تريستان

دوّامة المجانين

ترجمة
سهيل أبو فخر

منشورات دار علاء الدين

- دوّامة المجانين.
- تأليف: فريدريك تريستان.
- ترجمة: سهيل أبو فخر.
- الطبعة الأولى 2010.
- عدد النسخ 1000 نسخة.
- تمت الطباعة في دار علاء الدين.

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص. ب: 30598 هاتف: 5617071

فاكس: 5613241، E-mail: ala-addin@mail.sy

ISBN: 978-9933-18-054-6

"لقد حصل كل ذلك يا عزيزي لأنك أخطات النافذة".

جان بوتوكي
المخطوطة التي عثر عليها في ساراجوس

"كانوا هناك، على لعبة الخيول الخشبية، وكانوا يدورون! كانوا يدورون!
كانت رصانة وجههم الشاحب تشهد على جنونهم بما فيه الكفاية.
وكان ثمة طفلٌ ينظر إليهم".

رالف أبيركومبري
وكان من زجاج

١

جريدة "الفيجارو"، ٢٣-٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٣.

"قُتل كينيدي مساء أمس في "دالاس" أثناء جولة سياسية له في جنوب الولايات المتحدة. فقد أصيب بعيار ناري في رأسه بينما كان يعبر المدينة في سيارة مكشوفة".

كان ذلك صحيحاً إذن. كانت هنالك جلبة في العمارة ليلة أمس. حاول "هوغو" أن يفتح التلفاز، لكن جهازه كان معطّلاً كالعادة. قالت له جارته: "تعال عندي إذن. لدي بسكويت لذيذ من نوع لسان الهر". لم يكن "هوغو" يحب البسكويت، ولا الأم "ميرلان"! ولذلك فقد فضّل أن يذهب إلى مقهى "ديزار" حيث من الممكن أن يلتقي برواد المقهى الذين تصادقوا بحكم الملل.

كان المقهى مقفراً.

- لا بد أنهم جميعاً أمام التلفاز، قالت له المحاسبة الجذابة "لويز بوزيان" التي كان الزبائن يدعونها "لادوكول".

- كان ينبغي عليكِ أن تضعي تلفازاً هنا، قال لها "هوغو"، ذلك أن هذه الآلات تجذب الزبائن كالذباب.

هزت كتفيها وقطبت جبينها واستعادت وضعيتها وعيناها شاخصتان في المرآة. كانت تمضي معظم وقتها في التمعن في

استدارة وجهها، وغزارة شعرها، ذلك أن لديها شعراً رائعاً أصهب مضفوراً، شعراً قال عنه الشويعر "ميرون" إنه مغيب شمس على بدر مكتمل.

كان النادل "مارسيل" ينام على طاولة البار. وعندما عرف صوت "هوغو" مد ذراعيه الطويلتين، مثل مومياء ترتدي ثياب العيد.

- ماذا تشرب؟

كان هذا السؤال هو العبارة الأكثر تهذيباً في حديثه.

- مشروبي الاعتيادي. هنالك سبب يستحق الشرب، أليس كذلك؟

- ما هو؟

- كينيدي!

- أه، أنا...

لم يكن "هوغو" واحداً من أفراد العائلة بالطبع. فهو لا يستطيع أن يزعم أنه مفجوع، لكن طلقات "دالاس" قد أثرت فيه.

- أرأيت فستان "جاكي"؟ سألته المحاسبة بعد أن خرجت من تأملها فجأة. كان وردياً وملطّخاً بالدماء. ذلك أن جروح الرأس كانت تنزف كثيراً. مثلما حصل لزوجي "شارلو" عندما اصطدمت خشبة الأرجوحة برأسه ذات يوم عصراً في معرض "ترون". لكنَّ ذلك حصل منذ مدة طويلة.

في هذه اللحظة شعر "هوغو" بالندم لأنه لم يقبل دعوة العجوز "ميرلان". لو قبلها لكان قد رأى الفستان الوردي وبقع الدم.

- هل عرفوا من فعل ذلك؟

يبدو أن "لادوكول" قدرت أنه لا حاجة لهذا السؤال. فمطت شفتيها وعادت إلى وضعيتها مقابل المرآة.

دخل "باربوزان" في اللحظة نفسها. كان هذا العطار يدخل دوماً كما لو كان يلج خشبة المسرح، فيقول "نهاراً سعيداً للجميع"، هذه الجملة التي كان صداها يرن في صدر الصالة. بيد أنه توقف هذه المرة مندهشاً عندما تأكد أن الصالة شبه فارغة. أين الرواد، أين لاعبو الورق والدومينو، أين "مورينو" و"ميرون"، و"فوشو"؟

- مرحباً يا سيدة "لويز" المخلصة دوماً لعملها!

- نهاراً سعيداً يا سيد "باربوزان".

- وأنت يا "هوغو" أيها الحيوان العجوز الطازج مثل سمكة "البرعان".

تصافحا.

- حدث طريف، أليس كذلك؟

- هذه ضربة المافيا، قال "باربوزان". مثلما حدث مع "هنري الرابع" و"جان جوريس". برأيي أن المخابرات السوفيتية متورطة فيه. فقد أعلنوا في الإذاعة أن الاتفاق النووي الهش بين واشنطن وموسكو معرض للتهديد. ومن جهة أخرى، انخفضت بورصة نيويورك بمعدل ٢١ نقطة. وهذا مؤشر، أليس كذلك؟

- ماذا تشرب، سأله "مارسيل".

- بيرة "بيكون"، أجابه "باربوزان". كان أبي يزعم أنه في أوقات الشدة لا أروع من المبغى وبيرة "بيكون".

- أبوك كان ماجناً شهيراً، قالت المحاسبة من دون أن تستدير نحوه. لاحظ أنه كان بإمكانه أن يكون كذلك فقد كان رجلاً وسيماً.

جلس "باربوزان" و"هوغو" حول طاولة صغيرة مستديرة مما يعني أنهما لن يلعبا الورق في هذا اليوم.

- في الحقيقة، قال العطار، لقد سمعت أنهم سحبوا ثلاث طلقات. الأولى اخترقت جمجمة الرئيس. والثانية عبرت عنقه، والثالثة جرحت شخصاً كان موجوداً على مقربة منه، أعتقد أنه حاكم اسمه "جرينلي" أو ما يشابه هذا الاسم... أما بالنسبة لزوجته "جاكي" فقد مشت على أربع نحو الصندوق الخلفي للسيارة.

- ومن الذي أطلق النار؟ استفسر "هوغو".

- حسب آخر الأخبار، تم توقيف شاب في سينما. وهو عنصر قديم من المارينز، لكنكم تعرفون ماذا يعني ذلك. هذا يعني أن الشرطة تريد أن تظهر حماستها فتلقي بالمسؤولية على أي شخص مخمور. بصحتكم!

رفعوا كؤوسهم. قدَّم "مارسيل" إلى "هوغو" مقبلاته المفضلة مع مياه "سيلتز"، فكأنه كان يشرب رحيق الجنة على الأرض. وقد علَّق على ذلك قائلاً:

- هذا من أجل العناية بمعدتي.

لا أحد يصدقه. كانوا يضحكون ويعاملونه على أنه مازوخي. والحقيقة أنه رجل طريف. فهو يبلغ من العمر قرابة الثلاثين عاماً، ولم يحصل له أن تزوج مطلقاً. ولا يُعرَف له أي ارتباط أنثوي. كان يعيش وحيداً في عمارة صغيرة في حي "سان بول"، ويعمل في ورشة لتحنيط الحيوانات على مقربة من سكنه. ومما أثار دهشة الآخرين أنه يتقبل أن يعيش وسط جو السناجب والطيور المذبوحة والمحشوة، غير أنه كان يشرح للناس أنه لا يشعر بأي فارق فيما لو اشتغل ها هنا أو في أي مكان آخر، لأن عمله في المحاسبة وليس في التحنيط، ولأن الأرقام تفتقر للجلد أو الرائحة.

وفي حقيقة الأمر لم تكن المحاسبة تهمه أكثر من التحنيط. فهو لديه هواية وحيدة. هواية تساعده على أن يتحمل اضطراب الحياة ورتابتها. كأنها تتيح له، بطريقة ما، أن يحيا حياة ثانية. إنها هواية الكتابة حيث كان يمارسها سراً ومن دون دراية من أحد، وذلك عندما يكون وحيداً في غرفته بعيداً عن الناس جميعاً. ماذا يكتب؟ إنه لا يعرف بالضبط. فهو لم يرغب في أي لحظة بأن ينشر الكتابة النثرية التي كانت تنبجس كنبع خفي من أعماق أغواره الداخلية.

- ومن جهة أخرى، قال "باربوزان"، فإن أهل الجنوب يتمتعون بدمٍ حار. لقد ولدوا وهم يلبسون قبعة "الكاوبوي" على رؤوسهم ويحملون مسدساً في يدهم. ليس من المناسب إذن أن يتجول المرء في "تكساس" بسيارة مكشوفة، فعلى الأقل يصاب بضربة شمس.

فالشمس حارة لدرجة أنك إذا وضعت فنجاناً بارداً من القهوة على مقعد في الساعة الثانية عشرة، ستجده يغلي في الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق.

- هذا صحيح، قالت "لادوكول".

- انظروا ما حدث لكينيدي، قال العطار. كمينٌ مدبَّر، نعم أقول إنه من تدبير كواليس الكرملين المظلمة، ومن تنفيذ رجال عصابة "اليد السوداء"، وهي خليط من عصابات "كلو كلوكس كلان"، و "كوزا نوسترا" و"ترياد الصينية". أتدركون ما أعني... إنها مثل عصابة "رافياك" و"رافاشول" في فرنسا!

فُتح الباب فجأةً ليظهر "مورينو" الصغير الذي ينوب عن ساعي البريد عندما يكون مضرباً أو مريضاً. كان يلهث بقوة.

- هل رأيتم؟ هل رأيتم؟

- آه، قال "باربوزان"، ماذا بإمكاننا أن نرى ونحن هنا؟

- الشاب، الشخص الذي قتل كينيدي، اسمه "أوزوالد"، وقد مات. عرضوه على التلفاز في البث المباشر! أفهمتم؟ في البث المباشر! كان يخرج من مركز الشرطة مصحوباً بالحرس، فخرج رجل لا ندري من أين، وقتله. بما طلقة مسدس. إن مثل هذه الأمور لا تحصل إلا في أمريكا.

- ولم يقبضوا عليه! قال العطار متأسفاً. هذا ما كنت أقول. إنها المافيا! يجب ألاّ يستطيع قاتل كينيدي أن يتكلم. حسناً، سأعود إلى المنزل لأنهم سيعيدون عرض المشهد بالتأكيد. لا بد من أن تكون زوجتي مضطربة فهي تظن الذبابة الصغيرة دبوراً!

- نعم، أضاف "مورينو"، إنهم يستمرون في عرض المشاهد دائماً حتى لو كانوا يعيدونها ذاتها! فقد عرضوا مراراً وتكراراً السيارة وكينيدي بداخلها، وعلى الرغم من أن اللقطات غير واضحة، لكننا رأينا ما حصل بالعرض البطيء. مما لا شك فيه أن الشاب الذي أطلق النار كان مسلحاً ببندقية قنّاص. كان بإمكانه أن يقتل "جاكي" أيضاً، لكنه لم يرغب في ذلك بالتأكيد.

- في مثل هذه الأحوال، تستثنى النساء، قال "باربوزان" بفصاحة.

- أوه! ليس دائماً، قالت المحاسبة. تذكروا حريق "بازار الإحسان". كان الرجال يدوسون على النساء كي يتخلصوا من ألسنة اللهب!

- هذه رواية... قال العطار.

- وهي حقيقية! أصرَّت "لادوكول" بلهجة جازمة لا تقبل جواباً.

توقفوا عند هذا الحد. دفع "هوغو" فاتورة المشروبات. عاد كل واحد منهم إلى بيته. وعندما مرَّ "هوغو" أمام شقة السيدة "ميرلان"، سمع صوت التلفاز وقرر أن يدق الجرس. فهو لم يرَ أي صورة لمقتل كينيدي. لا بد أنه الوحيد الذي فاته المشهد.

- آه، يا سيد "هوغو" العزيز، ادخل! هيا ادخل! ليتك تعلم! لم أستطع متابعة المسلسل الفرنسي نظراً لكل هؤلاء الضحايا الأمريكان. لقد غيَّرتُ القناة في اللحظة التي كانت فيها الشابة "دولفين" ستتزوج من ابن الفلاح، ذاك الذي لديه ساق

ميكانيكية... وهذا ما جعلني أعتقد أن "جوني" سوف يخطب "سيلفي". يا له من ثنائي غنائي ساحر، أليس كذلك يا سيد "هوغو"؟

وقدمت له كأساً من شراب الكرز وعلبةً من بسكويت "لسان الهر".

٢

كان من عادة "هوغو"، عند انتهاء العصر، أن يودع "جول برونتان"، صاحب محل التحنيط، ثم يذهب ليتوقف نصف ساعة في مقهى "ديزار"، باستثناء يوم الأحد حيث كان يمضي فترة العصر في لعب الورق. ثم يذهب إلى مطعم "لوكليرون" حيث تكون مائدته جاهزة دوماً. كان يتناول العشاء وحيداً وهو يقرأ آخر أخبار النهار، ثم يعود إلى بيته.

في هذا الوقت كان يجلس إلى طاولته ويكتب طوال ساعتين أو ثلاث ساعات. لقد اعتاد على هذه العادة مبكراً جداً، عند تخرجه من مدرسة المحاسبة في شارع "سومور"، بحيث أنه ملأ نحو ثلاثين دفتراً كبيراً بكتابته المتقنة. حاول في البدء أن يروي حياته، لكنه سرعان ما لاحظ أن حياته لا تساوي شيئاً. فبدأ في الإبداع.

وقد فرض نفسَه عليه بطلٌ كان بمثابة قرينٍ له. فأطلق عليه اسم "راستابان"، وقد تعرَّف على هذا الاسم الصبياني منذ طفولته. وبما أنه طفل وحيد من دون أب، ومهمَلٌ من أمه المشغولة جداً بزبائنها العابرين، فقد خلق لنفسه عالماً يسود فيه "راستابان" على هواه. وهكذا فالشقة الصغيرة التي كان يسكنها في ذلك الوقت وحده تقريباً في ساحة "ديلفور" تحوَّلت إلى قصر، والشارع الذي كان يرتاده

أكثر مما يرتاد المدرسة تحوَّل إلى غابة مليئة بنمور البنجال وببغاوات سومطرة.

وقد غمره أحد المدرسين برعايته، فراح يعطيه دروساً في الحساب واللغة الفرنسية عندما لاحظ أن ذويه قد تخلوا عنه. وفي نهاية الصف الثالث دفعه باتجاه المحاسبة، ثم قدَّمه فيما بعد إلى صاحب محل التحنيط الذي كان صديقه آنذاك. كان الأستاذ "ميسمر" هو الشخص الوحيد الذي اعتنى بالصبي. وعندما مات، وجد "هوغو" نفسه وحيداً، كما كان في السابق، لكنه لم يشعر بأي نقص نظراً لتعوُّده على الوحدة. فأصبح "ميسمر" ببساطة إحدى شخصيات الرواية العجيبة التي تتدفق كل مساء من خياله.

هكذا كانت الأيام تمر بين ورشة السيد "برونتان" ومقهى "ديزار" ومطعم "لوكليرون" والصحف وشيء من التلفاز، وكانت تغلب على كل ذلك ساعات الكتابة اليومية التي كان "هوغو" يعتبرها اللحظات الوحيدة الجديرة بالحياة. ذلك أن أحداث الكوكب كانت تؤثر بعمق في مثل هذا الحلم الذي كان يسجله. إن "راستابان" هو من التقط آخر نَفَسٍ من روح الملك جورج السادس في قصر "ساندرينجام" وشاهد تتويج الملكة "إليزابيت" في دير "وستمنستر" جالساً على مقعد صغير. وإنه هو من نزع الأسلاك التي كانت تربط الزوجين "روزنبرج" بالكرسي الكهربائي، وهو الذي نزل في الغواصة إلى عمق ٣١٥٠ متراً في عرض مدغشقر. وفي أيار/مايو، حارب إلى جانب العقيد "كاستري" في "ديين بيين فو" حتى آخر طلقة، ومما يثير الدهشة أنه دخل إلى هانوي منتصراً في تشرين الأول/أكتوبر إلى جانب "هوشي

مينه". كما سحبوه سالماً من سيارة "البورش" التي انفجرت ومات فيها "جيمس دين". وهرع إلى بودابست ليواجه الدبابات الروسية، وذاع صيته في قناة السويس. وللأسف أنه لم يستطع، على الرغم من كل جهوده، أن يستخرج أي شخص حياً من منجم "مارسينيل". وفي بداية العام التالي، قلب نظام "باتيستا" ودخل إلى هافانا على ظهر بغل مع تشي جيفارا وثوار "باربودوس". وبينما كان الجيش الصيني يجتاح التيبت، قام بمساعدة زعيم البوذيين على مغادرة "لهاسا" سراً والالتجاء إلى الهند. كما كان "راستابان" يرتدي تاج الأسقف ويقف على يمين البابا يوحنا الثالث عشر ليفتتح مجمع الفاتيكان، وبعد بضعة أيام كان يشد على يد "مارلين مونرو" لحظة وفاتها.

ولكن ما الذي حصل في "دالاس"؟ من كان في سيارة "الليموزين" الرئاسية إلى جانب السيدة ذات الفستان الوردي؟ من ذا الذي تلقى طلقة "لي هارفي أوزوالد"؟ لا. لم يكن "جون كينيدي". بل كان "راستابان" نفسه. كان "راستابان" هو من نقل إلى مستشفى "باركلاند" بسيارة الإسعاف التي ملأت الدنيا بزعيق أبواقها. وعليه فإن "راستابان" هو من تلقى المسحة الأخيرة من خوري كاثوليكي تم استدعاؤه على وجه السرعة. وإن "راستابان"، ولا أحد سواه، هو الذي مات في الساعة الواحدة بعد الظهر من دون أن يستعيد وعيه على الرغم من عمليات نقل الدم له.

أغلق "هوغو" دفتره حيث سيرقد بطله تحت بلاطة في مقبرة "آرلنتون"، ثم ذهب للزاوية التي يطبخ فيها ليفتح علبة من يخنة الفاصولياء. ذلك أنه لم يستطع تناول أي لقمة في مطعم "لوكليرون"،

أما الآن فقد أصبح يعلم حقيقة ما حصل بينما كان الآخرون يجهلون ذلك بما أنهم جميعهم ضحايا المؤامرة كما كانوا دائماً. وبما أنهم ساذجون فهم يقبلون الأخبار كما يتم تقديمها لهم، ولا يرون الأمور على حقيقتها أبداً. والآن فقد قتل "راستابان"، وقد لا يستطيع أن ينهض من بين الأموات.

لم يكن "هوغو" حزيناً. فقد احتاج لبضع ساعات، بعد الإعلان عن النبأ، كي يفهم ماذا حصل بالضبط ويقبل نتائجه. كان يشعر بشيء من الفخر. سوف يُكتب اسم "راستابان" بين أبطال الزمن الغابر، ويكون قدوة للأجيال الشابة. وإن موته وهو في قمة المجد، بالرصاص كجندي، هو بمثابة الخاتم الذي مَهَرَ ورقة حياته الفريدة.

وفي حقيقة الأمر أنه عندما كان "هوغو" أمام تلفاز السيدة "ميرلان"، نزل عليه الوحي فجأةً فأدرك حقيقة ما حصل. لقد أوحوا للناس أن كينيدي قد قتل في حين كان "راستابان" قد كشف مؤامرة قتله فحلَّ محله مباشرة. وقد تم تمثيل "البروفا" الأصلية قبل ثلاثة أيام في المكتب البيضوي في البيت الأبيض. كان مكتب التحقيقات الفيدرالي قد أخطر الرئيس بأن نقابة سائقي الشاحنات ستبدأ إضرابها مما يجعل من المناسب تأجيل الرحلة إلى "دالاس". لكن كينيدي كان عنيداً فلم يقبل ذلك لأسباب انتخابية. وحينذاك عرض عليه "راستابان"، البطل الوفي، أن يأخذ مكانه طوال ذلك اليوم العصيب معرضاً بذلك حياته للخطر.

لا أحد يعرف وجه "راستابان" لأنه قادر على أن يتخذ الملامح التي يريدها. حتى أن "جاكي" لم تتبين الأمر لعدة مرات عندما اختار

الرئيس ألاّ يحضر اجتماعاً عاماً كان يزعجه. كما أن "مارلين"، كما تقول الألسن الخبيثة، قد استقبلت على انفرادٍ "جون" المزيف بدلاً من "جون" الحقيقي، ولم تتنبه لذلك قط.

كان "هوغو" يتساءل ماذا سيصبح كينيدي، لأنه في جميع الأحوال لم يعد باستطاعته أن يبقى رئيساً للولايات المتحدة. هل سينسحب إلى جزيرة مقفرة أو إلى دير في هضبة "التيبت"؟ أيصبح مستشاراً سرياً للملكة إنجلترا؟ أم يلتحق بسيرك "رومانوف" الذي كان شديد التعلق به في طفولته؟

كان "هوغو" يحب يخنة الفاصولياء الباردة، وكان يغرف بالملعقة من العلبة مباشرة. ومن نافذته كان ينظر إلى المنزل المقابل، وهو بناء قديم على وشك الانهيار، وفارغ من السكان منذ مدة طويلة. ومع ذلك فإن "هوغو" كان واثقاً من أن اجتماعات سرية تُعقَد فيه ليلاً ما بين جدرانه المتداعية. كان يلمح أشباحاً تلبس القلنسوات تتساب في الظلام وتدخل إلى المنزل المهجور بصمت. ومن الممكن أن تكون نقابة سائقي الشاحنات قد اتخذت قرارها باغتيال كينيدي في هذا المكان النائي.

رمى "هوغو" علبة الفاصولياء بالقمامة وعاد إلى طاولة الكتابة. كان شخص ما بانتظاره. للحظة لم يتبين من هو بالضبط. ثم بدأ الشبح يتضح شيئاً فشيئاً. إنه رجل يضع لباداً ناعماً على شعره، ويبدو غاضباً جداً. كان "هوغو" قد التقى به. لكنه لم يعد يذكر أين. ثم عرف وجهه فجأة، فقد رآه لدى الأم "ميرلان". اسمه "جاك روبي"، وهو صاحب ملاهٍ ليلية في "دالاس" وعضو في عصابة "كوزا نوسترا".

- هيه! صرخ قائلاً، هذا معيب! إن "اوزوالد" لم يقتل الرئيس بل قتل إنساناً آخر، فأين يختبئ كينيدي؟ لا بد أن نكمل ما بدأناه. ولسوف نطارده إلى الصين إن لزم الأمر!

ابتسم "هوغو" قائلاً:

- لقد قتلتَ "لي أوزوالد" عبثاً يا سيد "روبي". ثم ألا يلقبونك في عالمك "بالأخرق"؟ ومن جهة أخرى فقد سعيتَ عبثاً لأن تتبدل بلمح البصر، فقد كنت أراقبك، أنت وأمثالك.

أعاد "روبي" قبعته إلى الخلف، وقال:

- أتكون أنت "ماكدونال دفدوف" منسق البوليس الفدرالي؟

هز "هوغو" كتفيه، وأدرك أن لرجال المافيا خيالاً عجيباً، فأومأ إلى الحراس أن يعيدوا القاتل إلى زنزانته. لقد انتهت قضية كينيدي بالنسبة إليه. يمكنه الآن حفظ الملف في الخزانة المعدنية التي يملك مفتاحها هو وحده. لن يلاحظ أحد تبديل الشخصيات. ولن تجرؤ المافيا على أن تذيع ما تعرفه.

أما "راستابان" فيستطيع الآن أن ينام في قبره بهدوء.

٣

- أرأيت ما حصل؟ قال "جول برونتان"، لم يخطئه.

لم يرغب "هوغو" في أن يتكلم، ولا سيما عن مقتل "راستابان". فهو يعلم الكثير ولا يمكنه أن يبوح به لأحد.

- أترى؟ تابع صاحب محل التحنيط كلامه، إن العالم لا يدور. يحق لنا أن نتساءل حتى لو كان يدور. ربما أنه ساكن ببساطة ومعلّقٌ في الفضاء ونحن معلقون معه. من ذا الذي وضع في رأسنا هذه الفكرة الغريبة التي تقول إن الأرض كروية وإنها تدور حول الشمس؟ ها؟ شخص إيطالي شبه مجنون. ونحن كقطيع من الغنم ندور، بل نعتقد بأننا ندور. وبالاختصار، أسألك أيها العزيز "هوغو": إلى من يمكننا أن نركن اليوم؟

ينتمي السيد "برونتان" لنادي المتشككين في الدائرة العشرين. كان بإمكانه أن يكون نائباً للرئيس لو لم يواجه "بونسار" أثناء الانتخابات. ذلك أن "بونسار" كان قد كتب كتاباً بعنوان "حقيقة الواقع"، وكان لهذا الكتاب تأثير كبير في الأعضاء، ما عدا "برونتان" الذي كان من الغباء بحيث انتقده علناً، وتجرأ على أن يقول عنه: "إنه فلسفة الدرك". فلم يغفروا له هذه العبارة. ومع ذلك فمن الصعب أن تجد متشككاً أكثر منه في باريس كلها. فهو يعلن أنه

لا يعتقد بشيء لدرجة أنه يشك بوجوده هو نفسه أحياناً. من يثبت لي أن الموجود ها هنا هو أنا وليس شبحاً لإنسان آخر يأخذ شكلي"؟ وقد علّق الآخرون أنه يشترك في هذا التساؤل مع كبار الصوفيين المفتون بهم.

- كان كينيدي يتصور أنه سيد العالم. طلقة صغيرة تافهة وقضي الأمر! هذا ما يحصل لمن يعتقد أنه بارع جداً. أترى يا "هوغو"؟ نحن لا شيء. وكل ما نعتقد أننا نعيشه مجرد ضلال. أمس مثلاً، ماذا أصبح الأمس؟ أسألك. عبثاً تبحث عنه. ذلك أنه غير موجود في أي مكان. لم يعد الأمس موجوداً، ولم يعد كينيدي موجوداً. هذا طريف، أليس كذلك؟

هرب "هوغو" من أفكار معلمه متذرعاً أن عليه القيام بمراجعة مستعجلة للفواتير الشهرية العائدة للبارون "ميدي" العجوز الذي يملك قصراً في الريف ويحنط كل الطرائد التي يقنصها في الصيد: الأرانب والتدرج والسمّن والحجل ورؤوس الخنازير والأيائل، وحيوانات أخرى يحنطها ويعرضها بعناية قصوى في قاعة كبيرة مهيبة من القصر يسميها "الأعجوبة".

ذات ليلة دخل "راستابان" خفية إلى قصر البارون "ميدي". زار قاعة مغانم الصيد على ضوء المصباح الكهربائي. كانت مئات، بل قرابة ألف، من الحيوانات المحنطة ترقد فيها. مسرح ضخم للموت. في الوسط هناك تابوت من الزجاج، ألقى "راستابان" نور المصباح عليه فوجد مومياء ممددة ترتدي ثياب العرس: فتاة شابة ذات شعر أشقر وملامح عذبة وابتسامة ساخرة كما لو كان حضورها يعود لمسرحية

هزلية. هل هي ابنة البارون "ميدي"، أم خطيبته، أم فتاة شابة قام بأسرها؟ كان "هوغو" يجهل ذلك ولم يكن ليكشف لأحد بالطبع عن وجود هذه الفتاة الميتة التي كان الرجل العجوز غالباً ما يأتي ويجلس قربها ليتأمل.

كان "هوغو" قد اهتم بأمر هذه المومياء الجميلة الخارجة من حلم - أو من كابوس، فمن يدري؟ وكان قد طلب من "راستابان" أن يفتح تحقيقاً في الأمر، لكنه رفض القيام بذلك. لا بد أنه كانت لديه مشاغل أخرى. ففي ذلك الوقت كان في "كاب كانافيرال" بجانب "فون براون" يشاهد عملية إطلاق الصاروخ "جوبيتر" الذي يضع محطتي الفضاء "إيبل" و"بيكر" في مداريهما على ارتفاع ٤٨٠ كيلومتراً.

كان "هوغو" قد سأل "برونتان" بمكر عما يعرفه عن البارون العجوز. هل هو متزوج؟ هل لديه أطفال؟ لم يكن صاحب محل التحنيط ليعرف أي شيء من ذلك. فعندما كان البارون يجلب طرائد صيده، لم يكن لينزل من السيارة. كان يختبئ وراء نظارته وقبعته. وكان سائقه يضع الحقيبة التي تحوي الحيوانات المذبوحة، ثم يغادر من دون أن يتفوه بأي كلمة.

كان "برونتان" يقول: إنه يدفع جيداً.

ولقد ظهرت الفتاة الشابة ذات ليلة أمام "هوغو". كانت ترتدي فستان عروس وتنساب مثل لاعبة التزلج على الجليد. اقتربت من سريره ونطقت شفتاها بصمت باسم "آميلي". أراد أن يسألها، لكنها كانت قد رحلت. تمنى لو أنها تعود، وراح يرقبها في نومه.

- بعد كل شيء، قال "برونتان" وهو يقترب من محاسبه، لم يكن كينيدي سوى رجل. كان يذهب إلى الحمام مثل كل الرجال. وحتى عندما كان يمارس الحب مع "جاكي"، لم يكن الأمر بأفضل مما نفعله أنا والسيدة "برونتان". إن ملاءات الحرير لا تغير في الأمر شيئاً.

رفع "هوغو" رأسه عن دفتر الحسابات وقال:

- ومع ذلك... ومع ذلك...

- كيف "مع ذلك"؟ إنه مثل "ديغول". كانوا يلقبونه في إنجلترا بـ "فتحة السروال السحرية". ففي ٤ حزيران/يونيو أدرك مشكلة فرنسيي الجزائر. وما إن وصل إلى الحكم حتى تخلى عنهم. أهذا رجل كبير؟ لقد فهم الإنجليزيات اليافعات أكثر مما فهم عزيمة الثائرين على فرنسا في شمال أفريقيا.

عند هذه الكلمات التاريخية، عاد "برونتان" إلى الورشة ليجد عامله "بواسار" الذي كان "هوغو" يلقبه بـ "باقر الكرش" في حين يلقبه "راستابان" بـ "سيد الأعمال الوضيعة". ألم يكن يزعم أن "بواسار" هذا يذهب إلى المقابر ليلاً ليستخرج جثثاً كان يطلبها منه عالمٌ مجنونٌ يدعى "جوستاف كراكن" كي يجري عليها تجاربه الحقيرة؟ كان "هوغو" يرفض على الدوام أن يصافح هذا الشخص الكريه. لم يكن يفهم لماذا يحافظ "برونتان" على صحبته، ولكنَّ الثابت أنه من الصعب إيجاد رجل قادر على نزع أحشاء الحيوانات البريئة من دون أي تأنيب ضمير مثله.

غير أن "هوغو" كان يفكر أحياناً بأن "جوستاف كراكن" ليس سوى البارون "ميدي". كان يتصوره يقوم بأعمال العالم المجنون

الحقيرة أثناء تجواله في قصره، فهناك مختبر مليء بالأفران وأباريق التقطير التي تغلي وتفوح منها رائحة الفورمول. كما أن أجهزة معقدة تأزُّ وينبثق الشرر منها بينما يشتغل قزمٌ على آلة ترتبط بمحول وكرسي كهربائي.

لا شك أنه تم معالجة "آميلي" في هذا الكهف. ولكن، من أي مدفن نبشها "بواسار" الحقير؟

كان "هوغو" يأمل أن تأتي إليه كي يشرح لها من هي ومن كانت في الحقيقة. وكان يشرب قبل النوم الحليب الساخن بالسكر والقرفة، لأنه يعلم أن هذا المشروب يمهد للقاءات سعيدة. كانت "آميلي" تبقى متحفظة. أكانت خجولة؟ أم أنها تخشى أن تزعجه؟ لا شك أنها شخصية رقيقة جداً.

وكالعادة مضى النهار ببطء. في الساعة الخامسة ودَّع "هوغو" "جول برونتان" وذهب إلى مقهى "ديزار". كانت لحظة السير على رصيف شارع "بيريبه" لحظة عزيزة على قلبه. فهو يشعر بأنه قد أصبح حراً أخيراً. وأصحاب المحال يعرفونه ويحيونه عندما يمر أمام عتبة أبوابهم.

- هل اطلعتَ على قصة كينيدي! كان يبدو لطيفاً جداً. لا شك أن أرملته قد تلقت ضربة معنوية قاسية. أترى؟ المجد.. الثراء.. السعادة.. بثانية واحدة لم يبقَ أي شيء منها. كأنها مسرحية تراجيدية قديمة.

عندما دخل "هوغو"، كانت "لادوكول" تنظر إلى شعرها في المرآة.

- مساء الخير سيدة "لويز"...

- مساء الخير سيد "هوغو". أكل شيء على ما يرام؟

أخرج الصبي "مارسيل" في الحال زجاجة "فرنت بلانكا". في حين كان العطار "باريوزان" يخلط الورق.

- أرايتَ رأس جونسون؟ قال ضاحكاً. سيكون رئيساً مثيراً للشفقة! من المعروف أنه ليس من الضروري أن يكون لدى من سيصبح رئيساً للولايات المتحدة دماغٌ متطور، إنه نائب الرئيس، أترى؟

- يبدو أنه لا يستطيع أن يمشي ويمضغ العلكة في آن واحد! قال "ميرون" وهو يطوي جريدته.

- حسناً، هذه بداية جيدة! قال "مورينو" الصغير. ومن جهة أخرى فقد تغيَّر حال الأمريكيين منذ أن أطلق السوفييت مركبة "سبوتنيك" الفضائية.

هز "هوغو" كتفيه. تذكر يوم ١٢ نيسان/إبريل حيث أخذ "راستابان" مكانه سراً إلى جانب "يوري ألكسيفيتش جاجارين"، وحلّق في الساعة التاسعة وسبع دقائق على ارتفاع ٧٠٠ كيلومتر من كوكبهما القديم. وما زال العد العكسي يطن في أذنه باللغة الروسية إيذاناً بالإطلاق: "Desiat... Siémi... Tri... Dva... Noul" [عشرة... سبعة... ثلاثة.. اثنان... صفر].

- هلا نلعب الورق؟ سأل "باريوزان".

- لكنَّ السيد "هوغو" يحلّق اليوم فوق السحاب. قالت "لادوكول".

- كعادته، أضاف "ميرون".

جلس "هوغو" قُبالة "باربوزان" بينما كان "مارسيل" يجلب زجاجة "فرنت بلانكا" والمياه المعدنية بوقار شديد، كما لو كان يقدم القربان المقدس.

- برأيي، قال "مورينو"، يجب أن نتوقع حصول اضطرابات خطيرة.

- اسكت، قالت "لادوكول". لقد أخفتني...

- أوه، أضاف "باربوزان" بلهجة علمية، أنا أتوقع الأسوأ. ولن أُدهش إذا ما بدأت الأسعار بالارتفاع. البويا والمياه وحتى المنظفات. نحن قادمون على أزمة، لقد قلت لكم ذلك. أمس...

كان يستعد لأن يبدأ برواية قصصه التي لا تنتهي عندما قرع الجرس وفتح باب المقهى. استدار الجميع. أيكون هذا هو "فوشو" الصيدلاني؟

كانت الدهشة عامة. فقد دخلت، بوجهها الفتي المذعور، صبيةٌ سمراء شبه غجرية، وانسابت ببطء نحو أقرب طاولة، فجلست عليها، ومن دون أن تنظر لأحد، راحت تحدّق في الباب الذي دخلت منه.

- ها، قالت "لادوكول" بصوت مرتفع، هذا المكان ممنوع على القاصرين الذين يأتون وحدهم يا آنسة.

تراها قد سمعت؟ لقد ظلت متسمرة في مكانها على المقعد. فاقترب "مارسيل" منها.

- آنستي...

أدرك "هوغو" كل شيء. إن هذه الفتاة الشابة التي دخلت توّاً ليست "جاكي كينيدي" كما اعتقد في البدء لأنه لا وجود لبقع الدم

على فستانها الوردي. إنما كان هنالك أثر الشمس على فستان هذه المجهولة. كما أن هذه الفتاة ليست شقراء. وشعرها الأسود الفاحم ذو القَصَّة الولادية يتناسب مع عينيها السوداوين، غير أن "هوغو" كان واثقاً من أن "راستابان" لم يستطع أن يرى جيداً على ضوء المصباح في قاعة الصيد الخاصة بالبارون "ميدي".

إن هذه الفتاة التي دخلت توّاً ليست سوى "آميلي"!



- ربما هي عطشانة... قال "مورينو".

- نعم، وافقه "ميرون". لا بد أنها عطشانة.

أومأت "لادوكول" إلى "مارسيل"، وقالت "لآميلي" بلهجة متعجرفة:

- تشربين كأساً من الماء وبعد ذلك تذهبين! لا أريد متاعب مع الشرطة. أتفهمين...

لم يبدُ على الفتاة أنها سمعت ما قيل لها، وبقيت شاخصة تتأمل بكآبة الباب الذي دخلت منه. قطع "باربوزان" الصمت الذي خيم منذ وصول هذه المجهولة.

- "هوغو"، هل ستقطع الورق، نعم أم لا؟

لا. لن يلعب "هوغو" الورق هذا اليوم. فقد جاءت "آميلي" لتبحث عنه. وهي لا تستطيع بالطبع أن تنظر أو تومئ له أمام الآخرين، لكنها جاءت ها هنا من أجله كما فعلت في الحلم. كان واثقاً تماماً من ذلك.

- اسمعوا، قال لهم، أشعر بأنني لست على ما يرام. من الأفضل أن أعود إلى البيت.

- ربما إنها بداية الانفلونزا. قالت المحاسبة. فهذا الطقس الرطب مناسب للميكروبات.

- وحتى للفيروسات، أضاف "ميرون".

شرب "هوغو" كأسه دفعة واحدة، ووضع عشرين فرنكاً على الطاولة، ونهض.

- رأسك يدور؟ سألته "لادوكول".

كان "مارسيل" قد جلب كأس الماء إلى "آميلي"، لكنها لم تشرب.

- سأكون على ما يرام... سأكون على ما يرام... اعذروني.

اجتاز الصالة ببطء. كأنه ابن مئة عام. تهيأ له أن الفتاة الشابة تركز نظرها عليه. يجب ألاّ يتوقف كي لا يفهم الرواد ما يحصل. وهكذا خرج وأصبح في الشارع.

سوف تتبعه "آميلي" بعد قليل، وليس في الحال، كي لا تثير الأقاويل. قد تنتظر بضع لحظات وتخرج من المقهى كي تلحق به. توقف "هوغو" أمام أول محل مرّ به، وتظاهر بأنه يتفحص ما في واجهته.

- آه، هتف بائع القبعات وهو يخرج من محله، سيد "هوغو"! أي مصادفة سعيدة! ربما أنك تريد قبعة... أو البرنيطة الدارجة في هذه الأيام. ولكن قل لي: أرأيت ما حصل لكينيدي؟ وزوجته الشابة، أتعلم إنها فرنسية الأصل؟ وهي أنيقة لهذا السبب!

كانت "آميلي" قد خرجت من المقهى وصعدت الشارع في الاتجاه المعاكس. مما لا شك فيه أنها رأت "هوغو" يستوقفه بائع القبعات.

- كنت أعرف فتاة أمريكية، استمر الرجل في حديثه، كانت تضع قبعة من ثلاث طبقات مثل تاج البابا، أترى ما أقول... ونظارتها

وردية. وجوارب بنفسجية. ذوق سيّئ مخيف. في حين أن "جاكي" تعرف كيف تلبس.

كان "هوغو" قد أصبح بعيداً في مطاردة الطيف الهزيل الذي رآه يبتعد في نهاية شارع "بيريبيه" وينحرف إلى اليمين في جادة "جنرال جامبييه". حاول عبثاً أن يستحثَّ الخطى، بدا له أنه لن يستطيع أبداً أن يلحق بالفتاة المجهولة. ومن جهة أخرى عندما وصل إلى رأس الجادة رآها خالية. أتكون الفتاة الشابة قد دخلت أحد البيوت؟ أكانت مجرد طيف؟ انتظر "هوغو" قليلاً، لا يعلم ماذا يفعل، ثم قرر مغموماً أن يعود ليجد غرفته فارغة.

لماذا لم تنتظره "آميلي"؟ كانت تخطر في باله وتثلج صدره بوجهها الزيتوني الصغير وشعرها الأسود الفاحم القصير وفستانها الرخيص. لم تتجاوز الساعة السادسة مساء. ولا تبدأ الخدمة في مطعم "لوكليرون" إلا بعد ساعة. كان من الواجب عليه أن يتصرف وألا يستسلم للندم. جلس على طاولة الكتابة. وهناك اجتاحه صمت عميق. وبدأت الحقيقة تتجلي شيئاً فشيئاً. لم يعد هنالك ضجيج كما هدأت الانفعالات الداخلية هي أيضاً.

فالصحيح أن سلطة "راستابان" المتوفى قد استمرت تحت الأرض، أو على الأقل في هذا الفضاء وهذا الزمان الحقيقيين. لقد استحقت روحه أن ترتاح بعد هذه الإنجازات الكبيرة. يستطيع الناس أن يبكوه، فقد فك هذا المغامر الكبير آخر مراسيه. واندفع نحو الأعماق، هناك حيث يسود الهدوء والنشوة حسبما يقول الشعراء. ولا يبقى سوى أن تنشر الأسطورة ذاكرتها.

ولكن ما هذا؟ فقد ظهر شكلٌ كشبح ينبثق في الظلام أمام نافذته.

- أوه! صرخ "هوغو" مندهشاً. لقد أتيتِ... اسمك "آميلي"، أليس كذلك؟

أجابته ضاحكة:

- بإمكانك أن تدعوني بالاسم الذي تريد.

أفاق من دهشته، وقف خلف الطاولة، وسألها:

- أنت من تسكن لدى البارون "ميدي"؟ لقد رآك "راستابان".

- أنا أسكن حيث تشاء.

كانت تجيب مثل تلميذة صغيرة بصوتها الفتي ويديها المعقودتين خلف ظهرها وعيونها المنخفضة.

- لماذا لم تأتِ إلي منذ قليل في الشارع؟ لقد اعتقدت أنني فقدتك.

- الناس يخيفونني.

- وأنا لا أخيفك؟

رفعت عينيها نحوه فشعر بنظراتها تقطعه كالسيف. تذكر حينذاك. إن "آميلي" هي من قبيلة "موشيشانار"، القبيلة الملكية المشهورة لهنود "كوربيستان"، هذه القبيلة التي يسميها العامة "رومانيشيل"، والتي وُهِبَتْ قوةَ العين الثالثة.

كان "هوغو" قد نسي هذه القصة القديمة التي كان قد قرأها في كتاب مصور أعطته إياه امرأة محسنة عندما كان طفلاً بمناسبة عيد الميلاد. تذكر فجأة الغرفة التي كان يجلس فيها على السجادة

بجانب الموقد حيث يشتعل الحطب لابساً فستاناً حين قدمت له يد ناعمة بيضاء لقمةً بالزيدة المملحة. كانت تلك هي المرة الأولى التي يعتني به إنسان ما بحنان. أين حصل ذلك؟ لدى السيدة المحسنة إن لم تكن الذاكرة قد خانته. لم يعد يذكر من القصة شيئاً، لكنه يذكر هذا الاسم الغريب بوضوح: "موشيشانار كوربيستان".

يعود أصل هذه القبيلة الملكية إلى الشمس. وقد قالت النبوءة لأجدادها إنهم إذا استمروا في الارتحال فسيعيشون أحراراً خالدين إلى الأبد. أما إذا حاولوا أن يستوطنوا في أي مكان فسوف يصبحون عبيداً وسيموتون. وهكذا أصبح "الموشيشاناريون" بداوةً يرتحلون من قرية إلى أخرى كي يستمروا على قيد الحياة، وراحوا يروون قصتهم، فيزخرفونها ويزيدون عليها فصولاً جديدة عبر السنين، بحيث استطاع شاعر منشد موهوب أن يكتب منها ديواناً من ألفي صفحة. وقد توجب على هذا الشاعر أن يكف عن الرحيل ويستقر في إحدى الحاضرات كي يستطيع أن يكتب تلك القصة، فتحققت النبوءة، وانهمرت المصائب عليه فأصبح أعمى، وكان أول رجل يموت من القبيلة.

- بماذا تفكر؟ سألته "آميلي" إذ لاحظت أنه يغوص في الصمت.

لم يكن يفكر. بل كان يرتحل هو أيضاً. كان يتقدم مندسًّاً في موكب "الموشيشانارين" الطويل بين النساء الجاثمات بثيابهن المبرقشة على البغال والخيول المسرجة، وبين الرجال الذين يلبسون أسمالاً جلدية زنخة ويقودون الإبل التي تحمل التوابل. يتقدمهم مهرجون يلعبون ألعاب الخفة، بعضهم بالحراب وبعضهم الآخر بالنار، بينما تقفز قرود صغيرة وتصرخ طوال الموكب.

وسط هذا المد من الأمواج العاتية، كانت ترتفع قبة مزركشة باللون الأحمر والذهبي، فوق عربة غريبة مزينة بالأعلام والأحجار المتعددة الألوان والشرائط المفتولة. وفيها تنام على وسائد مطرزة فتاة شبيهة باللبوة بثيابها البهية. إنها ابنة زعيم القبيلة. إنها عيناه وكنزه وحياته: إنها "آميلي" أميرة "كورببيستان"، وحولها جوارٍ عارياتٌ يقمن بالتهوية لها مستخدماتٍ سعف النخيل.

كان هذا الموكب البهي العجيب يجتاز صحارى حارقة ومستنقعات ذات حيوانات غريبة، وغابات غنّاء ذات طيور سريعة، وبلدات فيها بسطات مثقلة بالحمضيات والسوائل واللحوم. وفي المساء، يتوقف الموكب لليلة واحدة أمام خانات مهيبة، مصدوماً بالروائح السامة والموسيقا الصاخبة، أو يخيِّم في العراء على تخوم واحات ناعسة حتى أذان الفجر. حينذاك كانت نسوة ذوات شعور خشنة يشرعن في الغناء، ويرقصن على أنغام الآلات الوترية أو آلات النفخ، وعلى إيقاع الطبول المصنوعة من جلود حمار الوحش، والصنوج المصنوعة من العاج. وبذلك يحتفلون بميلاد الشمس، وهي أمهم وقائدتهم، هي التي لا تكف عن الدوران بلا كلل مثلها مثل أتباعها.

- سيد "هوغو"! سيد "هوغو"!

كانت العجوز "ميرلان" تناديه وهي تقرع الباب.

- تعال بسرعة! تعال لترى! سوف يعرضون في التلفاز حياة كينيدي المسكين، شبابه وزواجه، و....

ولما كانت "آميلي" فتاة برية وغير داجنة، فقد غادرت في الحال.

٥

لم يذهب "هوغو" في ذلك المساء، لا إلى السيدة "ميرلان"، ولا إلى مطعم "لوكليرون". كان يحتاج للكتابة، لأن يستسلم لتيار الكلمات، ويستأنف كتابة القصة حيث توقفت الشخصيات. لم يعد يفكر في "آميلي". فهذه الحقيرة هربت عندما بدأ يقترب من سرها. أتظن أنها أول أميرة يعاشرها؟ في البداية كانت هنالك قصة، أو بالأحرى القصة، تلك التي كانت تحكى في الغرفة. لقد دخلت هذه القصة في أعماقه عندما كان صغيراً، ولم تغادره قط. كان في الرابعة أو الخامسة من عمره عندما تعرّف بواسطتها على "راستابان" بصورة خاصة، وعلى الآخرين الذين التقاهم في الألبومات الملونة: البرغوث "زيج" والبطريق "ألفرد"، و"زوزو" و"كروكفير"، والدب "بروسبر" ورفيقه "توتون"، ولكنه سرعان ما نسي هؤلاء جميعاً على الرغم من أنهم فتحوا أمامه باب المغامرات الساحرة. وفي سن العاشرة أخذه كتاب "إيبينال" المصوَّر نحو أقاليم أخرى.

لم يروِ له أحد حكاية "بوسيه الصغير" أو "ريكيه". فهناك، في منزل تلك السيدة التي كانت تستقبله أيام المطر أو البرد القارس (كانت هذه السيدة تدعى مدام "بيرت")، حيث كان ينام على السجادة الشهيرة بالقرب من الموقد، وحيث كان يظهر له "العفريت في الزجاجة"، و "المظلة السحرية"، و "القط الذي يلبس الجزمة"، و "مغامرات فريز بوليه". لقد دخل في غرفة "بارب بلو" المحرمة، ورأى

ما لم يره أحد. ومع "علي بابا" استقبل كنز الأربعين لصاً، ونقله إلى المخدع المبرقع حيث كان يستغرق في الأحلام بانتظار أمه على الدوام.

كان "هوغو" قد بدأ الكتابة في سن الخامسة عشرة. أخذت القصة حينذاك بعدها الحقيقي، حيث ظهرت السيدة "بيرت" (السفيرة كما كان يحب أن يدعوها) ظهوراً مهيباً وجاءت لتلتحق بـ"راستابان"، ثم تبعها بعد ذلك بعدة أشهر ظهور الأستاذ "ميسمر" الحكواتي الكبير. لم يكن "هوغو" يعيش قصته مطلقاً مثلما يعيشها عندما يكتبها، بيد أنه قد حصل له أن طاف فيها عبر طرقات القصة الأخرى التي يعتقد الناس أنهم يعيشونها في حين أنها ليست سوى تمثيلية تافهة. وبذلك كان "راستابان" قد طاف في العالم مندسّاً في كواليسه. أما الآن، وبعد أن قتله "أوزوالد"، فلا بد من ظهور فصل جديد من القصة.

لقد تحول بيت السيدة "بيرت" البرجوازي إلى فندق فخم ذي مئة باب. وقد أسماه "هوغو" الذي تكاد تخونه الذاكرة باسم "الفندق الكبير". كان يتصور نفسه خادماً يقوم على خدمة سيدة كبيرة لا يعرف إن كان من الواجب عليه أن يقدّسها أو يلعنها. ولكنه لو قاد "أميلي" إلى هذا الفندق لوجد صعوبة في تبرير وجودها معه.

٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر

بحثت طويلاً، وأعتقد أنني وجدت الآن. روحي تتكوم تحت درج القبو. مما لا شك فيه أنني لم أكن أتوقع أنها تشبه حسكة السمكة التي مازالت تعلق فيها بضع نسرات فاسدة، أو أنها تشبه تجويف جريدة مستهلكة تسرد تفاصيل الأزياء العصرية والأخبار التافهة.

سيقال لي إنها رفات الهر، بيد أنه لا وجود لأي هر. ومن جهة أخرى لم يعد هنالك أي هر، ولا أي كلب. إن السيدة "بيرث"، السفيرة، لا تحب الحيوانات. إنما هي تحتفظ بسمكة في حوجلة لأنها، كما تقول، "هذه هي صورة حياتي"، وهذا غير صحيح لأنها، على عكس السمكة، كانت تتكلم ولا تكف عن الكلام، ولا نعلم إلى من تتكلم، ربما إلى الحوجلة.

لم تكن أبداً حسنة المعشر، حتى مع ذاتها. فهي لا تكف عن الشجار والتهديد لنفسها. مما لا شك فيه أن لها قريناً في رأسها. وأنا في هذه القضية كنت أمضي، أمضي فحسب. كنت أذهب إلى البقال كمن يمشي في نومه حاملاً القائمة التي عهدت بها إلي. كانت السيدة "بيرث" تترك لي عشرين فرنكاً على زاوية الطاولة. كنت آخذها عندما أخرج. هكذا كانت تدفع لي.

- "هوغو"، هل تزيد عنك أم هي لا تكفيك! أتعتقد أيها المسكين الصغير أن الأرض ستكف عن الدوران من دونك؟

كانت ممثلة. كانت تمثّل في "فولي باربوروس" في شارع "كادناس". على الأقل كانت تزعم ذلك. أمن الممكن أن أكون قد خرجت من مسرح الشوارع هذا حيث يتم عرض رواية تافهة على خشبة مهتزة، أو من مسرحية كتبها كاتب رديء أو كاتب لا وجود له كما أعتقد؟

عندما فكرت جيداً وجدت أنني مخطئ. لم تكن هذه هي روحي. أجهل من كانت. وهذا أفضل. عبثاً حاولت أن أعتبر نفسي نبيلاً. يبدو لي أنني أفضل من ذلك. ينبغي عليَّ أن أبحث عنها أيضاً. ربما ينبغي عليَّ أن أصعد في شارع "كوشريل"، وأدخل في شارع "كادناس"، وأدفع أبواب "فولي باربوروس"، وأصعد على الدرج الصغير، وأدخل في المخدع

ذي الزهور الذابلة، هناك سأجد روحي جالسةً في مقعد السيدة النجمة بشعرها المصبوغ، وفستانها الوردي المخرَّم، وخواتمها المرصعة بالأحجار الكريمة. سأجد شيئاً شبيهاً بروحي. سوف تستدير، وربما ألاحظ في هذا الوقت أنها ليست هي بل مهرِّجة ذات وجه ملوَّن وشفتين بنفسجيتين وعينين عمشاوين وقبعة مضحكة. إنها تضحك. اذهبوا لتروا...

إذن سأبقى الآن هنا في المنزل العميق ذي النوافذ المغلقة. تستطيع السيدة "بيرت" أن تطرد الليل بالمروحة، الليل اللا نهائي الذي قررنا أن نصارعه، أنا وهي، لأنه لا بد لنا من الاعتراف بأن لا أحد قد أعطانا رخصةً للخلاص منه بقدوم النهار.

ذات صباح (كان من المفروض أنها الساعة التاسعة)، كان هنالك جلبة كبيرة مثل تلك الجلبة التي تصدر عندما يسدل العطار باب محله المعدني. ذهبنا إلى النافذة لنرى، فقالت السيدة "بيرت":

- رحلت السنونو.

لقد أعلنت الحرب. فبدأت الرشاشات بإطلاق أعيرتها النارية. وكان هناك إطلاق رصاص أيضاً. كان رجال الإطفاء يعبرون الجسر وهم يصرخون فيجد صراخهم صداه في أبواق القاطرات. دق الخوري ناقوس الخطر. سقط جبس من السقف. وأنا ماذا كنت أفعل في ذلك النهار؟ كنت أتذكر أمي. صرخت:

- سيدة "بيرت"! سيدة "بيرت"!

في حين كانت هي تصفف هرم شعرها الأشقر أمام المرآة المعلقة في الصالون الكبير. لم تتكرَّم بالجواب على ندائي، حيث كانت منشغلة في النقاش مع قرينتها الأخرى الموجودة في المرآة، هذه القرينة التي تسكن في داخلها بحيث تتخذها شاهدة أحياناً، ولكنها غالباً ما تتشاجر معها.

وفيما بعد:

- أترى أيها الشاب. إن الناس الطيبين يعتقدون أن الأشياء هي كما هي. خطأ! الأشياء هي بالضبط ليست ما هي عليه. هنا يكمن السؤال، وبهذا الخصوص، فإن الأستاذ "ميسمر" هو من رأيي. نحن في جحر مظلم. فإذا اعتقدنا أن المحيط سينفتح في نهاية النفق، فلأن قلبنا مليء بالنوارس مسبقاً.

- آه يا صديقتي، أنت تتفوهين بعبارات ساحرة! أجابت بحماس "بيرت" الثانية. يجب أن نتحدث عن هذا إلى ذلك الإله الذي يدير مكتب التبغ في جادة "جيزيب"، في زاوية شارع "بوجرون" بالضبط. فهو يدخن الغليون بطريقة لا تشبه طريقة أحد.

كانت السيدة "بيرت" تتكلم وتجيب نفسها. حوار مع ظلها. وأنا كنت أصغي. كنت أصغي أحياناً. موسيقا غريبة يرقص على وقعها أشباح بثياب العيد. موسيقا قديمة أيضاً. كانت الأوركسترا تقف على منصة في زاوية الصالون الكبير تحت ستارة صينية. كانت تعزف ألحان "الفالس" البطيئة لدرجة أن النغمات تغفو وتروح تحلم بموسيقا أخرى، ربما تكون موسيقا "السوينج". حينذاك كانت الجرذان بلباسها الأسود الضيق والفئران بتنانير الرقص تدخل وتغوص في رقصة "بوجي - فوجي" الحماسية.

كانت السيدة "بيرت" تتكلم. كانت الكلمات تخرج بعفوية من شفاهها البيضاء التي كانت تتحرك بصعوبة. كنت في البداية أحاول أن أفهم دلالتها. كانت كلمات جامدة، نوعاً من خليط لغوي معقد ومبهم لدرجة أنني لم أكن لأجرؤ على ولوج متاهاتها. والآن أرقب اللحظة التي يتضح فيها أي بريق لأي معنى، هوب! أقفز إلى

السيل، فأجد نفسي محمولاً على زورق سباق ينقلني بسرعة كبيرة إلى شلالات من العبارات والجمل التي لا أخرج منها إلا غريقاً.

هل السيدة "بيرت" مجنونة أم عبقرية؟ تراها بلغت ما كانت تسميه "أعالي جلالته"؟

- "هوغو"، اليوم سأتحدث إلى صديقي. سيكون جالساً على المقعد هناك. سأدعوه ليتبعني. سنرحل، نحن الاثنان، نحو ذرا جلالته. أنت تجهل بالطبع، أيها المسكين الصغير، تلك الجبال البيضاء المغطاة بالثلج الأبدي الذي لم يطأها أي مخلوق...

قالت "بيرت" الأخرى في المرآة:

- نعم إنها كومة من البراز!

لم تكن هاتان المرآتان تنتهيان من الشجار. ماذا أفعل؟ ماذا أقول؟ ماذا أجد؟ بمجرود ومكنسة صغيرة جمعتُ بقايا روحي التي كانت تجلس تحت الدرج وسوف أرميها في علبة ذكرياتي حيث تكوّمتْ فيها سابقاً أعمال "رالف أبيركومبري" الكاملة، ودليل "ميشلان"، و"فن الطبخ في عشرين يوماً"، وشجرة نسب "نيكولسون" وبعض الشخصيات البارزة التي حضرت عشاء أمس.

- سيد "هوغو"! أتعلم أن "جاكي" كانت تدعى "بوفييه" قبل زواجها، وأنها تنحدر من سلالة "لافييت".

أيها الساحر المسكين "ميرلان"، أي مصادفة سيئة جمعت اسمك مع هذه المخلوقة التي تتصعق أمام تلفازها الأسود والأبيض لمرأى الهجوم على قطار بريد "جلاسكو - لندن"، والتي تتأوّه عند إطلاق صاروخ "فيلكس" في الفضاء!

٦

استرسل "جول برونتان" في اعترافاته. وحضر الزمن الماضي في ذاكرته مثل مد الخريف الذي يترك النفايات على الرمل لدى انحساره.

- نحن، أبناء الحارة، كنا نشكل أسرة حقيقية. أنت لا تذكر ذلك يا "هوغو" لأنك كنت صغيراً. كان المدرس "ميسمر" يسكن في البيت رقم ٩ من الشارع. كان علاّمة، ذلك الرجل! كان يستطيع أن يصرف جميع الأفعال بجميع الأزمنة، ويعدد عن ظهر قلب جميع السلالات المصرية، ويقوم وحده بتمثيل جميع أدوار مسرحية "هيرناني". حتى إنه ذات يوم كلمني باللغة التركية! وفي يوم آخر باللغة الصينية! نعم، أعتقد أنه يتقن اللغات جميعها كما يتقن لغته الأصلية. كان غالباً ما يكرر لي: "أنا يا عزيزي برونتان، أنا عصفور". كان موسوعة يتمتع بروح الشاعر! والدليل على ذلك أنه كان عاشقاً، نعم أراهن على ذلك! فقد أغرم ببائعة ورد صغيرة كانت تجلس أمام كنيسة "سانت جودول" كل يوم أحد. كان اسمها "أليسيت جراتون"، وكانت شبه معتوهة. أما هو فقد أسماها "ألسين شاسميدي". متأثراً بالإغريق! وهذا يعني...

أدخل "برونتان" أصابعه تحت حمالات بنطاله بحركة تدل على أنه سيكف عن الكلام. في هذا الوقت كنا نسمع "بواسار" وهو ينظف رأس الخنزير بالسكين.

- أترى يا "هوغو"، في هذا المحل التجاري الزجاجي الذي نسميه العالم، لا يوجد سوى حل واحد وحيد! جمع الثروات. وقد عرف "ميسمر" كيف يجمع ثروته. إنها ثروته هو، وليست ثروة أحد غيره! كان يقول لي: "يا عزيزي برونتان، إن المثال الذي أقتدي به هم هنود الهندوراس. إنهم يعيشون على الهواء والخنافس المذهبة". آه. لقد كان رجلاً! ثم، في صباح يوم من الأيام، وضع المفتاح تحت الباب، مما أضحكني، لأنه لم يكن هنالك من باب ولا مفتاح. غير أن الحقيقة الأكيدة أنه رحل. ولماذا رحل؟ لأنه فقد "ألسين". فالبائعة الصغيرة في زاوية الشارع قد حزمت حقائبها ورحلت. بحث عنها هنا وهناك، ولما لم يعد هنالك من هنا وهناك اختار أن يتبع السيدة "بيرت" حينذاك.

أتبع "جول برونتان" جملته الأخيرة بصمت طويل.

ربما كان هذا الصمت بدافع من فرط التأثر. سأله "هوغو":

- والسيدة "بيرت"؟

مط صاحب محل التحنيط شفتيه، وترك حمالات بنطاله تطق على جذعه، ثم رفع صوته.

- آه، تلك السيدة! كانت تضرب على البلاط بقدمها عندما تمشي كأنها ملكة مصرية! كانت تتقدم في الشارع مثل سفينة مضاءة تدخل في المرفأ. كانت تتحرك بأريحية مهيبة بحيث كان الناس يبتعدون من أمامها ليفسحوا لها الطريق مذعورين. فهي لم

تكن برجوازية مرصعة باللآلئ، ولا ممثلة مسرحية عجوزاً، إنما كانت عصارةً مركّزة من الأبهة والمفاخرة، عصارةً تراجيدية وغريبة، وكانت مجموعة أعمال شكسبير على مسرح "بوف" الباريسي، وشيئاً شبيهاً بحريق روما، وموسكو، والرايخ، بل تجسيداً لحرب ١٩١٤-١٩١٨! لقد كنتَ أصغر من أن تنتبه لذلك أيها المسكين. كانت تلتقط الصبيان المشردين من الشوارع لتجعلهم خدماً لها. كانت تسميهم "دُمَايَ السحرية" حيث تحولهم إلى عرائس. أنت مثلاً، كانت تلبسك ثياب فتاة وتسميك "مانامور" بغنة من صوتها شبيه بغنة عجوز صينية. ولكن أكنت ترفض أي شيء مقابل لقمة من الزبدة الطازجة؟

ظهر "بواسار" القذر. كان معطفه الجلدي مبقعاً بالدم المتخثر. كان يحمل سكيناً بيده وكان ضخماً جداً بحيث لم يكن يبدو أنه "بواسار" الحقيقي.

- سيد "برونتان"، ماذا نفعل بآخر إرسالية من البارون "ميدي"؟

- اتركها يا صغيري. سأعتني بها بنفسي. هذا زبون ينبغي علي أن أهتم به. فهو يحصل على جميع الأصوات في الانتخابات، أتفهمني؟ أما بالنسبة لك يا "هوغو"، فعندما كلمني عنك الأستاذ "ميسمر" سابقاً، قال لي: " عزيزي برونتان، أنت تعرفني، ولن أكون إلا صريحاً معك. إن هذا الشاب يحتاج إلى رعاية خاصة". رعاية خاصة! هذا هو "ميسمر"! ثم أضاف جملة باللاتينية من نوع "إن الطّيب يحسن للطيبين"، وكنت ملزماً بالقبول. لاحظ أنني لم أندم على ذلك، لكن الأشياء هي كما هي، أو أنها بالأحرى غير ما هي. مختصر القول إنني كنت أود

أن أقول لك يا "هوغو": لا شيء نهائي في هذا العالم السفلي. إنني أحرص على أن تعلم ذلك. وأنا نفسي يحصل لي أن أتساءل فيما إذا كنت أنا حقاً أنا. فأن يكون لدي بيت يطل على الشارع لا يعني أن هناك شارعاً. لنعد إلى ما قلته سابقاً: لسنا أبداً واثقين من أي شيء، سوى أن هذا اللا شيء قد يكون في السابق كثيراً! انظر ما حصل إلى "ميسمر": فالشهيرة "ألسين"... أين هي، أسألك أين هي؟ أين تبيع ورودها حالياً؟ أندهش من أن كنيسة "سانت جودول"، عندما أمر من أمامها، لا تزال في مكانها. ومن جهة أخرى فمن كانت "جودول" تلك؟ أكانت حلم ليلة من ليالي الصيف؟ أم عاهرة مسترخية على سرير من المعتقدات كان قد رتبه لها إلهٌ غريب؟ والأم "بيرت"، هذه الشخصية الزائفة المتعددة الوجوه، هل أبحرت فعلاً في تلك الآلة، في ذلك الشيء الوهمي الذي كانت تسميه سفينة "ماري - جان"؟ آه يا "هوغو" المسكين، لسنا سوى شخصياتٍ مسرحيةٍ مصنوعةٍ من المعجون، والكواكب على حق حين تسخر منا! إن التحنيط هو الجواب الدقيق على الميتافيزيقا: حشو بالقش بدلاً من حشو الدماغ. إن الفزاعات هي أنبياء الطيور.

أكان "برونتان" قد شرب خمراً؟ لم يلتقط "هوغو" إلا فتاتاً من حديث لم يستطع أن يجده متماسكاً. قال:

- إن الأمكنة في المسرح تمتلئ شيئاً فشيئاً بأي كان. عما قريب سوف لن يبقى لنا إلا الكراسي المتحركة.

- لقد أصبت. أصبح المهرجون قادرين على إضحاك الناس الجديين فقط.

وودع كل منهما الآخر عند هذه العبارات الجازمة.

٧

في مقهى "ديزار"، تساءل "باريوزان":

- يا مدام "لويز" العزيزة، وأنتم يا أصدقائي، كما قلت لزوجتي السيدة "باربوزان" هذا الصباح، هنالك شيء متعفن في الدانمارك، أو بعبارة أخرى فإن روما لم تعد موجودة في روما.

صفق "ميرون"، وصرخ بصوت حاد:

- هذا ما كنت قد توقعته! لقد نضجت الطبخة. أو بعبارة فصيحة فقد لدغت الأفعى ذيلها، وهي لا تحب ذلك.

- إن موت كينيدي برهان على نظرية الكم، أضاف "ميرون". لقد قرأت ذلك في جريدة "باريس المساء". لم يبق لنا سوى أن نبكي.

- ضلال! قال "باربوزان". إن جريدة "باريس المساء" تستحضر نظرية الكارثة. لقد عطس صيني فبلع البركان مدينة "بومبي".

- آه، قالت "لادوكول"، أنتم تخيفونني بنظرياتكم! وأنت يا سيد "هوغو"، ألا تقول شيئاً؟

كان "هوغو" يبلل شفتيه في كأس "الفرنت بلانكا". إنه يحب هذا الطعم الحامض الذي يذكره برائحة الرواق المظلم والغامض الموجود في منزل السيدة "بيرت". رائحة الرواق؟ مما لا شك فيه أنها رائحة تنانير هذه المرأة أيضاً. ليست رائحة تنانيرها، بل ثيابها الداخلية.

ثياب "السيدة بيرت" الداخلية الغامضة، والتي لا تحصى! كأنها هُوَّة بركان بالضبط.

- إن السيد "هوغو" حكيمٌ، قالت السيدة "لويز" بغنج، فهو لا يفكر في أي شيء.

اللا شيء. من سمح لنفسه أن يزعم أن اللا شيء هو الكثير؟ "برونتان" أم الأستاذ "ميسمر"؟

- في الواقع، قال "باريوزان"، حسب معلوماتي فإن كينيدي لم يمت بل اختُزِلَ بشكل مريع. فالطلقة التي عبرت دماغه قد أعادته طفلاً بعمر ستة أشهر. يكون عظيماً لو أنه لا يزال يعرف كيف يتنفس! أتفهمون؟ فماذا نفعل بهذا الإمعة؟

- هيه! احتج "مورينو". إمعة! أليست الكلمة قوية نوعاً ما؟ سيد "باريوزان"، تذكر أن هذا الرجل كان رئيساً للولايات المتحدة!

- بوف! قال "ميرون". أنا واثق من أنه لم يكن قادراً على أن يسلق لنفسه بيضة!

- كان لديه "جاكي" من أجل أن تفعل ذلك. همس "باريوزان"؟ انفجرت "لويز بوزيان" بالضحك.

- السيدة "جاكي"؟ تسلق البيض؟ من تعتبرونها؟ اعلموا أنها سيدة كبيرة وأن حِدادها قد زادها رقة وهيبة. أنا أرى أنها ستنتهي بأن تصبح رئيساً بدل زوجها، قد لا يكون مباشرة بل بعد وقت قصير. اشهدوا على ما أقول!

- لا بد من أن تمر عبر جسد "جونسون"، قال "ميرون" بلهجة مرحة.

- آه، أنتم الرجال، أجابت "لادوكول"، لا تفكرون سوى بالمجون! قليل من الاحترام، من فضلكم. نحن النساء لنا روح، وربما اثنتان، لا تنسوا ذلك!

- اثنتان؟ سأل "باريوزان" ضاحكاً. روح لليل وروح للنهار، على ما أعتقد...

رفعت المحاسبة ذقنها.

- بإمكانكم أن تتهكموا دوماً! بيد أن المرحوم زوجي كان قد قرأ في كتاب علمي للغاية أن النساء يتمتعن بروح ذهنية وروح حسية، أي أنهن يتمتعن بروحين، حتى لو لم يرق لكم ذلك، في حين أن الرجال لا يتمتعون إلا بالروح الأولى، حتى إنني أشك بوجودها أحياناً!

- أوه! أوه! لقد استشاطت السيدة "لويز" غضباً!

- ومن جهة أخرى، استأنفت "لادوكول" كلامها بلهجة متعالية، فإن الأستاذ "ميسمر" عندما كان لا يزال حياً، كان من هذا الرأي تماماً. كان يقول دائماً: "النساء هن مستقبل الرجال" أليس هذا جميلاً؟

- بالطبع، قال "ميرون"، لكنه منذ أن مات لم يعد أحد يوافقه الرأي!

- أنا أقول بالأحرى إن جميع الناس أصبحوا يوافقونه الرأي الآن! قال "مورينو" مصححاً.

- هيا! هيا! قاطعه "باربوزان". إن دماغ "ميسمر" هذا كان منفتحاً على كل الرياح. إنه إمَّعة بثياب سهرة! من كان يعتبر نفسه هذا

المتعجرف؟ لقد كان عاجزاً عن طلب المقبلات من دون أن يتفوه بعبارة إغريقية أو لاتينية! أما بالنسبة للعب الورق... فهذا لا يليق بمقامه!

- أوه، أنا كنت أحب السيد "ميسمر" كثيراً، اعترفت "لويز بوزيان"، فهو رجل من الرجال القدامى، وللأسف أنه لم يعد هنالك الكثير منهم! كان يلبس قبعة مستديرة لا تشبه قبعة أحد. ثم إنك تعرفه أنت يا سيد "هوغو"، أليس كذلك؟

كان "هوغو" قد أصبح بعيداً عن مقهى "ديزار"، فهو يمتطي جواداً، ويرخي له العنان وسط قوم "الموشيشانار".

- من دون أي شك، يا سيدة "لويز"...

- إنه هو الذي ربَّاك تقريباً، تابعت المحاسبة. هو والسيدة "بيرت" بالتأكيد. يجب ألاّ تكون جاحداً يا سيد "هوغو". فمن أنت لولاهما؟ أسألك.

- أوه! قال "باربوزان"، لا تحدثوني عن "بيرت" هذه! كانت ترغب في أن تجعل من نفسها إمبراطورة "بيزنطة" في حين أنها كانت مجرد رخوية بحرية! عنكبوتة على كرسي متحرك!

- يجب أن نسمي الأشياء بمسمياتها. لم يقم بتربيتك لا أبوك ولا أمك! بل أخذتك السيدة "بيرت" في حضنها، أنت وأولاداً آخرين، وقد حالفك ما أسميه التوفيق الاجتماعي إذ لم يصل الآخرون لأن يصبحوا محاسبين لدى "جول برونتان".

- كنت أعتقد على الدوام أن السيدة "بيرت" متنورة وماكرة في آن، قال "باربوزان". أزعم أن هاجس المال كان يسيطر عليها. ثم قولوا لي، أتعرفون ماذا كان يحاك في بيتها عندما تغلق النوافذ؟

مدَّ "مورينو" أذنيه وهمس قائلاً:

- أتظن أن...

- أنا لا أظن، بل أؤكد! هذه المرأة كانت مديرة مبغى. هذا كل ما في الأمر!

خبَّأت "لادوكول" وجهها خلف ذراعها المطوي كما لو كانت تتفادى صفعة ستنهمر عليها.

- سيد "باربوزان"! إن ما تقوله مقذع!

أصرَّ "باربوزان" على رأيه.

- ألم تستهلك نصف دزينة من الرجال؟ وحتى "ميسمر" نفسه الذي كان يعتقد أنه من النخبة؟ أما الأطفال، فلا تحدثوني عن الأطفال. يا سيد "هوغو" المسكين، إنني أرثي لك حقاً.

وقفت "لويز بوزيان" في مكانها وقالت:

- أنت تبالغ في هذا يا سيد "باربوزان"! كانت السيدة "بيرت" امرأة فاضلة بعيدة عن القذارات التي تتصورها! أليس كذلك يا سيد "هوغو"؟ أجبني! قل شيئاً ما!

لم يكن "هوغو" يتابع الحديث. كانت الأنظار منصبة عليه. وكان دواراً يسيطر عليه. كان ينبغي عليه أن يغادر هارباً لكنه كان متسمراً على الكرسي مثلما تتسمر حشرة بدبوس.

- في الواقع، قال متلعثماً، عندما رحلت السيدة "بيرت"، تبعها الأستاذ "ميسمر". لا بد أنهما قد أبحرا على مركب باتجاه "الكاريبي"، على ما يبدو لي...

- ولم تصلك أي أخبار منهما؟ سألته المحاسبة. حتى ولا بطاقة بريدية؟ لا شيء؟

أخذ "باربوزان" يتكلم بلهجة متعجرفة.

- أرى أن المسألة مبهمة. لا يغادر الناس هكذا. ولكن وفقهما الله على كل حال! فهذان الاثنان لم يكن لهما أي قيمة بالنسبة لي.

- يبدو أن تحقيقاً قد فتح بالأمر، قال "مورينو". ولكن قل لي يا سيد "باربوزان" هل نلعب الورق؟ لأن هؤلاء الناس في المحصلة لم يكونوا من عالمنا. فليذهبوا إلى الشيطان إن كان ذلك يروق لهم! إنهم مثل "فوشيه" الصيدلاني، فماذا أصبح هذا الرجل؟

- عطارٌ لا شأن له، قالت المحاسبة. لقد ارتحنا منه! كان ينظر إليَّ بعينين شبيهتين بعينيّ ثعبان "الكوبرا" لدرجة أنني لم أكن أستطيع النوم في الليل! كان رجلاً دبقاً! فليذهب ويروي ترهاته في أي مكان مشبوه! أما هذا المكان فهو مكان محترم، أليس كذلك؟

- بالضبط، أكد "باربوزان". "فوشيه" هذا كان إنساناً تافهاً. صورة إنسان! هيا يا أصدقائي لنشرب على روح كينيدي، فهو على الأقل رجل مهم!

أفاق "مارسيل" من غفوته ليقدم الشراب لهؤلاء السادة في حين عادت "لويز بوزيان" لوضعيتها أمام المرآة.



عندما دخل "هوغو" إلى المحل، كان "جول برونتان" ينجز ترتيب الواجهة الأسبوعي. في الأمام وضع قرابة عشرة سناجب، وفي الوسط وضع خِنَّوصاً، وفي الخلف وضع باشقاً وعقاباً وبومة. وكان يستعد لأن يضيف إلى هذه اللوحة القروية بضع شرائط فضية من تلك التي توضع على شجرة عيد الميلاد.

- هل هذا جميل؟ سأله.

لم يكن "هوغو" يقدر هذه المعروضات. ومما لا شك فيه أنه كان سيتابع طريقه نحو مكتبه الصغير حيث يقوم بأعمال المحاسبة، لو لم يضف رب العمل بلهجة تدل على الطمع:

- لقد تلقينا أيِّلاً. وفي عامه السابع! أيِّلاً كاملاً! وهو للبارون "ميدي".

أيِّلاً! لماذا لا يكون حصاناً؟ راح "هوغو" يتصور "بواسار" المقيت وهو يشق كرش الحيوان بالساطور، فتفيض أمعاؤه وتسقط على رخام الطاولة، مثلما كانت السيوف تبقر بطون الخيول المسكينة في المعارك القديمة. كان "هوغو" يرى صفوف الفرسان المتتالية وهم يسارعون إلى الصراخ لدى إجهاز الموت شبه المؤكد عليهم. كان رئيسٌ يعتمر قبعة عليها ريشة، يأمر بالهجوم فتندفع الخيول دفعة

واحدة. وعندما يأتي المساء، كانت الخيول الدامية تستلقي على خاصرتها وتحرك إحدى قوائمها بين الفينة والأخرى كما لو كانت لا تزال تعدو وهي تحلم.

- سيضع البارون هذا الأيل في بهو قصره. منظر رائع! ليس مثل الأم "دوبان" التي جعلتنا نحشو لها كلبها الأصفر الذي لا يساوي شيئاً.

كانت قطعان من الأيائل تفر أمام الخيول المذبوحة في المعركة. كانت تعدو في الظلمة كالأشباح وتعود وهي تصرخ: "ولهالا".

- "هوغو"، أتسمعني؟

- نعم يا سيد "برونتان".

- تفضل بإعداد الفاتورة: تحنيط الأيل، مع رشه بقاتل الحشرات، ووضعه على قاعدة: ٦٠٠٠ فرنك من دون الضرائب والنقل. ونحن نقوم بتلميع الخشب على حسابنا.

- حسناً يا سيدي.

في الألبوم الملوّن من كتاب "بيلران" المصور، كان "هوغو" قد أُعجب بوصول المحاربين الشهداء عند إله "أودان" الذي قدّم لهم الرحيق، وقدّم للخيول التي مُسخت إلى أيائل ربطاتٍ من العلف في معالف مصنوعة من الرخام. ترى هل تم استقبال "راستابان" هناك؟

في الساعة الثانية عشرة، كان عمال التحنيط يتناولون الغداء في المكان: شطيرة أو وجبة باردة كان يجلبها لهم عامل من مطعم

مجاور. كان "هوغو" يكتفي بقطعة من حلوى اللوز والسكر مدركاً أنه سيتناول وجبة حقيقية في مطعم "لوكليرون" مساءً. أما "بواسار" الذي يرتدي المعطف الجلدي حول كرشه فكان يلتهم نقانق يجلبها خصيصاً من مطعم "كليبر"، بالإضافة إلى شرائح من التفاح وبيرة ألمانية. في حين أن السيد "برونتان" كان، عندما تدق الساعة الثانية عشرة بالضبط، يرتدي معطفه، ويضع قبعته على صلعته، ويلبس قفازه الجلدي الأسود، ويذهب بطريقة احتفالية نحو محل "آرك دو بون"، وهو "سناك - بار" رخيص حيث كان يشبع، بهيبة نادرة، من قطعة من لحم الخنزير الأبيض وصحن من السلطة حيث كان يكرر دائماً أنه "يجب على المرء أن يدلل نفسه، ولكن ليس كثيراً".

ومما لا شك فيه أن "لويز" في مقهى "ديزار" كانت تشاطره هذا المثل العظيم. فعندما رأت "هوغو" يدخل إلى المقهى عصراً، قالت له من أعلى منبرها:

- أهناك مثيل لتلك الوقاحة؟ أرأيتَ تلك الفتاة بالأمس؟

لا شك في أنها ظلت تجتر هذه الحادثة طوال ساعات وساعات.

- أي فتاة؟ سأل القادم الجديد بمكر.

- المتسولة... عديمة التربية! فهي لم تكتفِ في أنها لم تشرب من كأس الماء التي قدمها لها "مارسيل" بسخاء، بل مدت لي لسانها وهي تخرج! ولما شجبتُ تصرفها، وقفتْ، رفعتْ ثوبها من الخلف، وأظهرتْ لي مؤخرتها!

تلوّى "مورينو" من الضحك.

- أوه، قال "باريوزان"، لا يمكننا أن نرى القمر بوجود الشمس الساطعة كل يوم!

- لا شك في ذلك، أضاف "ميرون".

- بف! قالت "لادوكول" وهي ترفع خصلتين من شعرها فوق جمجمتها كما لو كانت تريد أن تنفخ أهميتها، يمكنكم أن تضحكوا! لم يعد هنالك من احترام للأجيال! أهذه صبية؟ إنها عاهرة! حسب رأيي، إنها من أحد معسكرات الغجر التي يعج الحي بها. جوهر الأمر أننا لم نعد نعيش في فرنسا!

كانت "آميلي" على ظهر حصان وحشي بلون النار... همزت الحصان الذي ارتفع في السماء، فتبعها قوم "الموشيشانار" الذين كانوا يصرخون وهم يرفعون سيوفهم ورماحهم عالياً: "عاش إله الحب المقدس"!

جلس "هوغو" على الطاولة حيث كان شريكه قد خلط الورق. جلب "مارسيل" زجاجة "الفرنت - بلانكا" والمياه المعدنية.

- كما ترون أيها السادة، تابعت المحاسبة حديثها وهي تنظر في المرآة وكأنها تتحدث لنفسها، لم يعد هنالك احترام. حتى الخوارنة! حتى الخوارنة لم يعودوا يلبسون جبتهم! وأنا، إذا أردت أن أعترف الآن، فكيف أعرف لمن أتوجه باعترافاتي؟

- أوه سيدة "لويز"، قال "باريوزان"، أنت قديسة! أنا واثق من أنه يجب عليك أن تخترعي الخطايا كي تجدي ما تستطيعين أن تعترفي به!

غمغمت "لادوكول" قائلة:

- سيد "باربوزان"... سيد "باربوزان"... أراك تغازلني.

- لا، يا سيدة "لويز"، كل ما في الأمر أنني ألاحظك فأجدك طوال النهار تجلسين خلف الصندوق كأنك راهبة بوذية مع كل احترامي لك.

"بل كأنك بوذا نفسه"، قال "هوغو" في نفسه.

- آه، قال "ميرون، إن البوذية شيء مهم...

- أنا، قال "مورينو"، سأتناول كأساً من البيرة، فإن أحاديثكم الميتافيزيقية تجعلني أشعر بالعطش.

- لا يمنع ذلك، من أن تلك السمكة البيضاء لم تكن سوى حبة لفت، استنتجت "لادوكول".

صمت الجميع بعد هذا التأكيد، مما أتاح إلى "هوغو" أن يسمع صوت عَدْوِ الخيل - أو الأيائل.

- مثل اليوم الذي مات فيه البابا، بعد لحظة تأملٍ في وضع الأديان عبر العالم، قال "ميرون". البابا الطيب "يوحنا"! المسكين من بين المساكين! كما تقولون! أما المئة ألف ممن بقوا من دون مأوى في مدينة "سكوبجي" بعد الهزة الأرضية، فمن هم؟ الثابت أنهم لم يدفنوا بحلة القداس الذهبية والأرجوانية، على الرغم من أنهم موتى أكثر من الأموات، هذا ما أقوله لكم.

- آه، قال "باربوزان"، أنت تفكر دوماً على اليسار يا سيد "ميرون".

- وأفتخر بذلك يا سيد "باربوزان"، فالكنيسة هي آخر حجر من القصر الإمبريالي المهيب.

- كل ذلك قد تغير، قالت "لادوكول". فلم يعودوا يقومون بتلاوة القداديس باللغة اللاتينية مع أننا لم نكن نفهم أي شيء منها. ربما أنه لا يزال هناك هيبة في روما كما تقول، أما هنا فقد زالت الهيبة.

أضحكتهم كلمة "الهيبة".

- أوه، طالما أننا نتحدث عن الهيبة، قال "مورينو"، فهل قرأتم هذه القصة... شاب كان يركب على دراجة نارية خلف شاحنة تحمل الصفيح. وقع لوحٌ من الصفيح وقطع رأس راكب الدراجة. كان راكب الدراجة قد زاد سرعته توّاً مما جعلها تتجاوز الشاحنة. أصيب سائق الشاحنة بالسكتة القلبية عندما رأى سائق الدراجة من دون رأس، فانحرفت الشاحنة واصطدمت بمحل تجاري مما أدى إلى مقتل بائعتين وزبون. شيء لا يصدق، أليس كذلك؟

- وأين الهيبة؟ سأل "باريوزان".

لم يصر على ذلك. من جهة أخرى، كان "هوغو" يلعب الورق وكأنه ليس موجوداً مما أثار غضب العطار.

كانت الأيائل تجتاز الغابة عَدْوَاً. وكانت قرونها تحتك بالأغصان المنخفضة مما يُصدر حفيفاً جافاً. أما "آميلي" فكانت تضع وجنتها على عنق الأيل وتحثه على السير صارخة بصرخات قتال همجية تخيف الطيور حولها. كان الموكب يقترب من وجهته: قصر البارون "ميدي"، نحو "جوستاف كراكن" اللعين.

- حسناً، هل ستفتح هذه الورقة أم لا؟

نحو الساعة الخامسة، دخل "هوغو" إلى مطعم "لوكليرون".

"كيف أهرب منهم"؟ قال في نفسه. مع أنه كان يحب رواد مقهى "ديزار" أولئك. كان لا يتأخر عنهم أبداً، أما الآن فإن "راستابان" قد مات، وظهرت "آميلي". لا بد من أن يتغير كل شيء.

كانت قد خُصصت له طاولة بين النافذة ذات الستائر المصنوعة من "الدانتيلا" الأصفر وبين التمثال المصنوع من الجبس والذي يمثل الزواوي[1] الذي يدق النفير، والذي سُمِّيَ المكان باسمه. وعندما دخل، حيَّته "جانين"، النادلة المغناج، بصوتها العالي: "مساء الخير سيدي المحاسب"! مما استرعى انتباه "جرابار"، الزبون الوحيد الذي يأتي قبل "هوغو" دائماً، وكأنه يمضي أيامه ها هنا.

بدأت حينذاك الوجبة الاعتيادية الدائمة. مقبلات: سلطة شمندر وشريحتان من السجق. طبق اليوم: دجاج مقلي، أو بيض بلحم الخنزير، أو كرنب معلب في يوم الأحد. والحلوى: تفاحة. المجموع ٨٥ فرنكاً من ضمنها الخدمة والنبيذ. مما يجعل "جرابار" يؤكد قائلاً: "هذه وجبة دسمة".

كان "الموشيشاناريون" في طريقهم لتحرير سجناء القصر من الأيائل والخنازير والسناجب والحيوانات البرية الأخرى. سيفتحون التابوت الزجاجي الذي ترقد فيه الحسناء النائمة، سيأخذونها بمهابة إلى معسكرهم، وهناك يقوم كبير السحرة بإيقاظها.

١- الزواوي هو الجندي الفرنسي الذي يرتدي زي أهل مراكش. -المترجم

فتحت "جانين" جهاز التلفاز الموجود في صدر الصالة. ها هو ذا "جاك روبي" يقتل "أوزوالد" للمرة الألف. الرئيس الجديد يقسم اليمين الدستورية. "جاكي" ما زالت ترتدي ثوبها الوردي الملطّخ بالدم.

- إنها مصيبة كبيرة وتحدٍّ كبير، قال المذيع. وبعد ذلك، عُرِضَ إعلانٌ لمعجون الأسنان "كولجيت".

٩

ما إن أنهى "هوغو" وجبته المتواضعة حتى جاء "جرابار"، الزبون الدائم في مطعم "لوكليرون"، ليجلس إلى طاولته.

هيه! إنني أراك دائماً هنا، فمنذ مدة طويلة وأنت زبون هذا المطعم. مثلي تماماً. تدخل وتجلس في المكان نفسه، ثم تطلب وجبتك من القائمة وتأكل بصمت كما لو أنك لست موجوداً. والخلاصة، أتفهم ما أريد أن أقول...

رفع "هوغو" رأسه من فوق الصحن:

- نعم، أو بالأحرى لا، فأنا لم أفهم قصدك تماماً.

عدّل الآخر من جلسته:

- سأشرح لك. أنا وأنت نسكن في الحارة نفسها، وهي ليست حارة من القمر، أليس كذلك؟ ومع ذلك فنحن نذهب ونعود ونمضي، لا نفعل شيئاً سوى أن نمضي، ولا نتوقف أبداً كأننا وحيدون في علبة، أو بالأحرى في فقاعة، ونحن أشباح، في الواقع إننا مجرد أشباح، ولا نلتقي بأحد. بإمكانك أن تناديني "ألفونس".

- ولماذا أناديك "ألفونس"؟ سأل "هوغو" الذي أزعجه وجود هذا الرجل الطيب.

- لأنه اسمي الأول، وأنا احتاج لمن يعرف أن هذا هو اسمي. أتفهم، إنني أعمل لدى "مافلو"، بائع الفحم في شارع "دابرومون". أنا

الذي أعطي الفحم للزبائن. والناس، أنت تعرف الناس، لا ينظرون إليَّ، ولا سيما عندما يعطونني "البخشيش". بخشيش! لي أنا، من كان يريد أن يصبح لاعباً في سباق الدراجات! أتفهم ما أقول؟

راح "هوغو" ينظر بصورة أفضل لهذا الرجل ذي الرأس الأحمر المستدير، الذي يشبه البالون الذي يلعب به الأطفال.

- آه، لو أنني قد تعلمت لاستطعت أن أتدبر أمري مثل الآخرين، ولكنت قد اشتريت دراجة سباق مزدوجة السرعة مع ناقل للحركة، بالإضافة إلى كل ما أحتاجه. بيد أنه ليس لدي ساقان. مجرد قائمتيْ ديك. ليس لدي فرصة لذلك. وبالمقابل فإن لدي ذراعين قويتين. وهذا ضروري لحمل الفحم. وفي هذا الجانب، فأنا لا أخاف أحداً. أنا سعيد بذلك. على الرغم من...

لم يكمل جملته. وانسابت دمعة في زاوية عينه سرعان ما مسحها بقفا يده. ربما أنها دمعة سكران.

- ذلك أن لي كرامة. أتفهمني؟ هل تفهمني؟

فجأة تمتم "هوغو" متضايقاً، وانتهى بأن قال إنه يفهمه، ولكن ما الذي فهمه بالضبط؟

- آه، أشكرك! أشكرك! صرخ الرجل آخذاً بيده من فوق الطاولة. طريقتك في المشي وفي الجلوس وفي السعال في قبضتيك... نعم، كنت ألاحظك، حتى إنني قد لاحظتك منذ قليل، عندما عرض التلفاز مقتل كينيدي (تعلم عمن أتكلم)، كنتَ فوق الحدث وما وراءه. وهذا دليل على فكر متميز، فبالطبع، كل ذلك، التلفاز، كينيدي، وكل هذا السيرك، بالطبع هو غير حقيقي، وهو من أجل

تنويم العالم. وفي الحقيقة أنه لا يحصل أي شيء مما يقال. إن الكبار يخدعوننا، فيدخنون السيجار الهافاني، ويركبون سيارات المرسيدس، ويمارسون مع نساء جميلات لقاء مئة دولار على الجلسة الواحدة. وذلك ما عدا الإكراميات والبخشيش والمغريات! في حين أنني من البؤس بحيث لا أستطيع أن أسحب ورقة يانصيب! لا يهم! لندع الأمور كما هي. إن المجتمع متعفن حتى نقي العظام، ولا نستطيع أن نفعل أي شيء.

طوى "هوغو" منشفته، وتظاهر بأنه سيرحل.

- هيه! هتف الرجل. لا تتركني هكذا، هناك أشياء سأقولها لك! أمي كانت امرأة حنونة ومسكينة، كأنها عجينة امرأة، لا أدري كيف أشرح لك الأمر... أما أبي فأنا لم أفهمه أبداً. كان يلبس ثياب "لورد" ويدخن سجائر مصرية ذات عقب ذهبي. وفيما بعد تزوجتُ. آه، مما لا شك فيه أنني لم أعرف أن أقوم باللازم، لذلك كانت زوجتي تتنقل مثل الأرنب من بار لآخر، وأنا كنت أنتظر وأنتظر. لم تكن زوجة جيدة، لكنني كنت أحبها مع ذلك، ومرَّ الزمن. لقد حملتُ مئات أكياس الفحم لهذا الوغد "مافلو". وبقيتُ مغروساً عنده من دون دراجة. ولا بد لي من أن أعترف أنني لم أعد أريد دراجة. ما فائدة الدراجة، هاه؟ ما فائدة الحياة؟ آه لو كان لي ذرية! ربما يتغير الأمر، لكنَّ أولاد هذه الأيام مختلفون عن أولاد عصرنا. غشاشون منذ ولادتهم. نعم: غشاشون! على من يمكن الاعتماد إذن؟ ثم سأقول لك...

كانت شفتاه تتحركان من دون أن يخرج أي صوت، أو أن "هوغو" على الأقل لم يعد يسمع أي شيء بل أصبح مفتوناً بهاتين

الشفتين اللتين تتحركان تحت خط الشارب الذي حدده بدقة بحيث لم تخرج أي شعرة منه.

من كان "جرابار" هذا بالضبط؟ فحتى هذه اللحظة، كان "هوغو" ينظر إليه كأنه قطعة من الديكور، مثله مثل زوايا الجبس واللوحة التي تمجد حمّامات "إكس لي بان" المعدنية. ثم إنه قد ترك طاولته وجاء ليجلس قبالة "هوغو"، ويبدأ يتكلم من دون سبب ظاهر. هذا السلوك يبدو مشبوهاً. أيكون "جرابار" مرتبطاً "ببواسار" الذي يقوم بتقطيع الحيوانات لدى "جول برونتان"؟

للوهلة الأولى لم يبدُ هناك أي سبب لمثل هذا التصرف. وهذا ما كان يزعزع تفكير "هوغو" الذي قطع مونولوج الرجل الذي يجلس قبالته وقال له:

- أتعرف البارون "ميدي"؟

بدا "جرابار" مندهشاً، فهذا الاسم لا يعني له أي شيء، وهو صادق، ولكن كيف نعلم ذلك؟

- آه، الأرستقراطيون...

- و "جوستاف كراكن"؟

قطب حمال الفحم جبينه.

- ألماني أيضاً! اعلم يا سيدي أنني لا أكلم هؤلاء الناس! إنهم من القتلة، حتى إنهم قد اخترعوا القنابل وغاز الخردل وبندقية "جروس بيرتا"!

عادت شفتاه تتحركان من دون أن يصدر عنهما أي صوت. كان يخرج قليل من البصاق وراء كل جملة يقولها هذا الثرثار.

وحصل تغيير بطيء. إذ استطال الرأس الدائري آخذاً شكل كرة "الرجبي"، كما تمدد الفم والعينان. وتقدم الأنف فأصبح مثل فنطيسة الخنزير. وخرجت قرونٌ ببطء من آذان "جرابار". لا شك أن هذا الرجل متنكر: فقد كان أيِّلاً! والآن بدأت الكلمات التي تخرج من خطمه تأخذ معناها. راح "هوغو" يسمعها بوضوح شديد. كانت قادمة من أعماق العصور، وعابقة برائحة الغابة الرطبة.

- يا "هوغو"، أنا زعيم "الموشيشاناريين" الخفي. وقد حدثني عنك "راستابان" و "آميلي". أنت جدير بأن تدخل في القبيلة القديمة. وقريباً، سوف تحصل على العلامة التي تسمح لك أن تلج الباب. فأنا أعرف السيدة كما ترى.

لم تدم الرؤيا سوى لحظة واحدة. إذ استعاد "جرابار" وجهه الاعتيادي، وغاص في عبارات سديمية عن فن الصيد في مستنقعات "باربري". ثم صرخ فجأة:

- ولكن، لا تعتقد أن أمي كانت عاهرة! فهي مثل زوجتي... كانت كل منهما أكثر من امرأة: ملائكة مهجنة بالشياطين! كانتا تحبان الإحسان للرجال على حد قولهما. كانتا ترتخيان أمام الذكر الفحل. وأنا كيف كنت، أسألك... كانتا تكرران "أنت مسكين جداً". والصحيح أنهما كانتا تجلبان النقود إلى المنزل. أما أنا فظللت أطقطق بأصابعي وألعب الورق مع التافهين حتى اليوم الذي ذهبت فيه أمي على عربة الموتى وزوجتي بسيارة رجل إيطالي. ما الذي بقي لي؟ لم يبق لي سوى "مافلو" وأكياس الفحم. ثم، ثم، يا سيدي العزيز، لو تعلم...

لم يكن لدى "هوغو" أي رغبة في أن يعلم. كان يتمنى أن يعود لغرفته، ويجد "آميلي"، لكنه كان لا يعرف كيف يتخلص من "جرابار" هذا، الذي يتمتع، في نهاية المطاف، برأسٍ كالبدر، ولا يشبه الأيل بأي حال من الأحوال!

- نعم، أعترف لك يا سيدي أنني أغرمت بصور فاتنات الرزنامات. لحسن الحظ أنه لم يبق لي سواهن! ماذا يمكن للفتاة أن تنتظر مني؟ في حين أن فاتنات الرزنامات شيء مختلف يا سيدي، فهن لا يأكلن الخبز. لقد علّقتُ المئات منهن في الشقة التي تركتها زوجتي لي: شقراوات وسمراوات وحمراوات، يثرثرن ويثرثرن! يجب أن أفهمهن! ومما يسرني أنني عندما تتملكني الرغبة، أختار إحداهن، وهوب! لا يعود هناك "مافلو"، ولا يعود هنالك فحم: بل تلاطم الأمواج واعتدال الربيع يا سيدي، مع أنغام الكمنجات والأبواق والطبول وباقي الآلات! شيء لذيذ. ينبغي عليك أن تجربه.

- سوف نغلق!

أطفأت النادلة "جانين" الأنوار الخافتة المنتشرة في الصالة، وتركت ضوءاً واحداً يسمح للزبائن بتلمس طريقهم إلى الباب.

- آه، يا آنسة، قليلاً من الوقت أيضاً، أرجوك. طلب "جرابار".

- أكنتَ تحمل الأطباق مثلي طوال النهار! لم تعد ساقاي تحملاني! ثم إن الوقت هو الوقت. وداعاً يا سيدي المحاسب! وداعاً يا سيد "ألفونس"!

خرج الرجلان نفسيهما إلى الشارع يمشيان بتثاقل حيث تصافحا وذهب كل منهما في طريقه. كان الليل قد خيم تماماً. فأسرع "هوغو" ليعود إلى بيته.

١٠

تكمن طفولة "هوغو" في منزل السيدة "بيرت". أما خارج هذا المنزل فكان يشعر ببرد شديد، حتى في شقة ساحة "ديلفور" حيث لم تكن أمه تأتي إليه. عندما كان يكتب، كانت جدران منزل السيدة "بيرت" تنحني عليه بحنان. كان يتمدد على السجادة في حين يتراقص اللهب في الموقد. كان يغرق في الخيال حينذاك وبيده لقمة من الزيدة المملحة.

عندما تكفل به السيد "ميسمر"، شعر "هوغو" بنفسه فجأة كأنه مكلف بمهمة. كان عمره خمسة عشر عاماً في ذلك الوقت. كانت أمه قد توفيت، وكان الوحيد الذي تبعها إلى المقبرة تحت وابل من المطر. ثم غادرت السيدة "بيرت". أغلقت نوافذ بيتها نهائياً. مما لا شك فيه أنها قررت الرحيل. كان "هوغو" يتصورها على مركب شراعي أبيض يبحر نحو الجزر السعيدة.

كان "ميسمر" يعيره الكتب، والروايات بصورة خاصة بيد أنه لم يجد فيها القدر الكافي من الجنون إذ إنها كانت تنوء تحت وطأة الواقع. كان بحاجة إلى حكايا زاخرة، قصص بربرية، ملاحم أوديسية على غرار "التايتانك"، أحاجي، أي أنه كان بحاجة إلى أشياء لا تشبه الواقع بأي شكل من الأشكال. والكتابة بالنسبة إليه لم تكن بغرض النشر، فقد كان يعتبر ذلك أمراً تافهاً، بل بغرض سبر أغوار الحياة والعالم والذهاب إلى أعماقهما. أما نموذجه المثالي الذي كان يقرؤه غالباً فكان

قصة بعنوان "هلتر - سكلتر" للكاتب الإنجليزي "رالف آبيركومبري".
كانت بالنسبة إليه المجموعة القصصية التي يحبها. وفضلاً عن ذلك، فإن الغرابة في الأدب تشبه فقاعات الهواء القزحية التي تعكس العالم بعذوبة الحلم العابرة. هذا النص يدعى "الفاصل":

- يا عزيزي، قال الكونت، لا يوجد سوى طريقة واحدة للذهاب إلى جزيرة "كامبل"، هذه الجزيرة الشهيرة التي تحرسها ملايين البطاريق.

- أي طريقة؟ سأله الشاب الذي كان هذا المشروع يسيطر عليه منذ مدة طويلة.

- اعلم يا ولدي أنه يجب اكتشاف الباب الذي ينفتح على بحر صقلية. أتعرف ما هذا البحر؟ يصفه أفضل الكتاب على أنه مساحة من الزئبق تطفو فوقها أمواج غادرة. وباستطاعة مركب ذي شراع عال فقط أن يغامر بالإبحار فيه، ومن المناسب أيضاً أن يكون قبطان مثل هذا المركب قد قطع محيطات العالم جميعها قبل أن يندفع في هذه المغامرة. أعرف العشرات ممن فُقدوا منذ أول يوم من إبحارهم. ذلك أن بوصلتهم كانت سيئة.

- لا ريب في ذلك، قال المراهق، ولكن الباب... كيف أعرف مكانه؟ لا تقل لي إنه بداخلي، فأنا لا أعتقد بأي شيء من ذلك!

- أوه، أوه، صرخ الأرستقراطي. إن الداخل والخارج ليسا سوى وجهين لعملة واحدة! وهي في الحقيقة عملة مزورة، ذلك أنه من المفيد لك أن تعلم ألاّ أحد يستطيع أن يجد الباب إن لم يكن المفتاح معه.

- وهذا المفتاح موجود في...

- في جزيرة "كامبل" بالطبع! وبالتحديد تحت إبط أحد البطاريق. الذي تعتبره البطاريق الأخرى والدها. لكنني أحذرك من أن هذا البطريق بري جداً. ولا يمكن تدجينه إلا إذا قدمت له تبغاً لغليونه، وليس أي نوع من التبغ! بل تبغ "آلاباد"، وهي حاضرة مشهورة في الصحراء!

- أليست في المكان الذي يقيم فيه السلطان "عُمان"؟

- عُمان بن شريف. وهو رجل سعيد بشوش يجلس على جبل من المجوهرات التي يقدمها له أتباعه نظير رعايته لهم. إنه حبيب "راكيل ولش"، نجمة "هوليوود" الشهيرة التي مثلت فيلم "حريق البحر الأحمر". أما بالنسبة للتبغ فإن كل قبضة منه تساوي ثلاثة مليارات روبية. وهذا يعني أنه ليس هنالك من فرصة لنجاح مشروعك، لكن ذلك لا يهم! علامَ تتحسر؟ أنت هنا على ما يرام في "ميتابونت".

ساد صمت مطبق بعد هذا الحديث في هذا الصالون حيث كل شيء ينعم بالهدوء، ما عدا لمعان شرارة أو فرقعة حطبة في الموقد تأتي لتذكر بقدوم العاصفة الثلجية في الخارج".

أغلق "هوغو" كتابه. سوف يعود لقراءته على الرغم من أنه قد استنتج خباياه. إن تفكيره مركز في هذا الوقت على "آميلي". فهي لم تظهر ثانية. تراها تعود؟ هل أخذها "الموشيشاناريون" معهم بعد مسيرهم على المطايا؟

- سيد "هوغو"! سيد "هوغو"!

إنها جارته.

- سيد "هوغو"، لدي تسرُّبٌ كبير في غرفة المياه. هل تتكرم بمساعدتي؟

- أنا قادم يا سيدة "ميرلان"، أنا قادم.

- أنت رجل طيب يا سيد "هوغو".

كانت أمواج من المياه تجتاح الشقة، وبدأت تسيل على الدرج فبدا مثل شلال. خرجت البوابة من مخدعها مبللة بالماء وراحت تصرخ. وقف سكان العمارة على الدرج وهم يؤشرون بأيديهم. صعد "هوغو" فوق التيار بشجاعة باحثاً عن مصدر الكارثة. وأخيراً وصل إلى المغسلة حيث وجد الخط الواصل محلولاً. حاول أن يشده لكن ضغط الماء كان قوياً جداً. تبلل بالماء، وتبللت ثيابه. عاد نحو المدخل ليعلم أن أحد الجيران قد فطن لأن يستدعي سبَّاكاً.

في يوم كئيب مثل جميع الأيام بالنسبة إليهم، لا بد من أن يبارك المستأجرون مثل هذا الحدث. أما "هوغو" فقد صعد أعالي "الميسيسبي". وهم يهنئونه على ذلك. إنه مارد عملاق بطريقة ما. قدمت له السيدة "ميرلان" علبة البسكويت، فرفض أن يتناول منها شيئاً، وعاد إلى غرفته محاطاً بهالة كبيرة من المجد، ومرتجفاً من البرد. إن البطولة موجودة في مكان آخر. وإن "راستابان" ليعلم ذلك.

أين قرأ "هوغو" قصة المرأة البدينة ذات القبقاب التي كانت تقف وراء باب لا ينفتح مطلقاً؟ كان الأولاد يذهبون ليضعوا أمنياتهم في شق هذا الباب. كانوا يسمعون صوت قبقاب السيدة البدينة التي كانت تأتي لتلتقط الأمنيات. من يجرؤ على أن يدير قبضة الباب؟ من يسمح لنفسه بأن يدخل مخدع السيدة البدينة ذات القبقاب؟ من يجرؤ على أن ينظر في عيني سيدة النذور؟

كان "هوغو" يفكر في أنه ربما سيستطيع ذلك في يوم من الأيام.

١١

ذات مساء ذهب "هوغو" إلى السينما. لم تكن الصالات المظلمة تجذبه. ومع ذلك فقد جذبه عنوان الفيلم لأن يلج عتبة السينما حيث كان يتم عرض "*جلاديز، إمبراطورة الهند*". لقد أخافه هذا الفيلم، وعاد بعد مشاهدته خائر القوى. كانت المشاهد تمر بسرعة كبيرة. ولهذا السبب كان لا يعبأ بالتلفاز ونادراً ما يفكر بإصلاح جهازه. إن القراءة أرسخ وأعمق من التلفاز والسينما. فهي تسمح له بأن يُلْبِسَ الشخصيات مثلما يريد. أما في الفيلم، فإن السيدة البدينة ذات القبقاب قد تكون بالقيافة المضحكة التي تظهر بها بوابة العمارة، فلا يبدو أي شيء مثيراً للبهجة. أما في ذهن "هوغو"، فإن سيدة النذور كانت إحدى المسخ الأسطورية في حقيقتها. على رأسها أفاع تنشر فحيحها. نظرتها تجمد كل حياة حولها. وعلى الرغم من ذلك فهي تشبه السيدة "بيرت" التي أحسنت للطفل. ويمكنها أن تكون أمه البديلة أيضاً، وبذلك كان يبدل سحنتها على هواه!

استأنف "هوغو" القراءة في "هيلتر - سكلتر":

"عرفت شخصية تدعى "إيما لامارسن"، قال الأرستقراطي، وهي بعد أن قرأت "سرفانتس" تشبثت بأن تعيش في "باراتاريا" الجزيرة الوحيدة في العالم المحاطة باليابسة. وزارت "سمالدن". قرعت الباب فسمعت خطى السيدة البدينة ذات القبقاب. ووضعت ورقة أمنياتها في

فتحة صندوق البريد. وفي الحال وجدت نفسها مكفّنة في كفن كان بمثابة الجزيرة الصغيرة المحاطة باليابسة كما تمنت تماماً.

- مما يثبت أنه من المناسب قبل البدء بمثل هذا المشروع أن يتزود المرء بكل ما هو ضروري، قال الشاب".

ترى هل تزود "هوغو" بهذا الزاد الضروري عندما وضع أمنيته في صندوق بريد السيدة "بيرت"؟ ألم يجد نفسه، وهو من كان يحلم في "باراتاريا" في طفولته، غارقاً في شبابه في حفرة الحياة اليومية مثل الآخرين؟ ألم يكن يشتهي جزيرة عجيبة مجاورة للعالم لكنها مختلفة عنه في حين لا بد له من أن يحلم ويكتب كي يتخلّص من شرط لا يزال متواضعاً؟

كتب "آبيركومبري" في كتابه "الفاصل":

- لنعد إلى "آلاباد". ألم يشرحوا لك كيف يمكن للمرء أن يصل إليها؟ سأل الشاب.

تردد الأرستقراطي. إنه يعرف هذا المراهق وهو على ثقة ألاّ شيء سيثنيه عن قراره. فوجد من المناسب أن يحذره.

- يا ولدي، ليس الأمر بالوضوح الذي تعتقد! فهو متاهة معقدة وغامضة، وأصرُّ أيضاً على أنه خطير...

- هذا ما أحبه!

أذعن الكونت.

- ماذا تقول؟ هل سمعت أولاً عن نافذة "آجيوس".

- لا.

- إنها نافذة قاعة الشرف لنبلاء "برانتوم"، في حقل الأرز الموجود في غابة "رامبوييه".

- أليست هناك حيث يسود الأرستقراطي الأبله الذي تجعله ريشة طير أزرق أكثر ذكاء وموهبة من "ميارندولا"؟

- في الواقع كان اسمه "بالتازار". ويمكننا أن نناقش ذلك. مجمل القول إن هذه النافذة المشهورة موجودة في قاعة الشرف في قصره. وقد جلبها جدّ الملك الأكبر من قصر "بوردونيه" الريفي وركّبها على الجدار. وهذه النافذة قد نُزعت مرة أخرى من قاعة الشرف تحت حكم صاحب الجلالة "فرانسوا الأول"، ووُضعت في باريس في الركن الشمالي من قبو كنيسة "نوتردام".

- آه، آه، هذا خبر جديد! قال الشاب. ولكن ما أهمية نافذة "آجيوس".

- هذا هو جوهر الأمر: هذه النافذة تعنينا أكثر من أي شيء في العالم على الأقل بشأن ما تود النجاح فيه... ذلك أنه، يا صديقي العزيز، وأرجوك أن تحتفظ بهذا السر، يمكن العبور من هذه النافذة إلى العالم الآخر.

ظل المراهق فاغر الفم مدة طويلة. ثم تماسك وهو يمسك بيده كأساً من الخمرة سرعان ما أفرغه وصرخ:

- أنا لا أريد أن أموت!

- من كلمك عن الموت؟ صحح الأرستقراطي له. العالم الآخر هو العالم الحقيقي. على الأقل هذا ما يزعمه الناس. ولكن انتبه! لا أحد يعلم بالضبط ما يحصل لمن يجتاز نافذة "آجيوس" حقاً".

نافذة "آجيوس"! لم يشك "هوغو" في وجودها منذ أن عثر عليها في قصة "آبيركومبري". فهي موجودة في مكان ما، وليس فقط في الركن

الشمالي لقبو كنيسة "نوتردام". وقد عبرها "راستابان" مئة مرة. وربما أن السيدة "بيرت" قد عبرتها أيضاً مما يفسر رحيلها ونوافذها المغلقة. أما "هوغو" فهو لم يجدها حتى الآن. ينبغي عليه أن يكتفي بأحلامه ودفاتره. وغالباً ما كان يتلهف لأن يكون ممثلاً إيمائياً في مسرحية أكثر واقعية وحيوية. ومع ذلك، فهو عندما يقارن نفسه مع رواد مقهى "ديزار"، ومع "جرابار" و "جول برونتان"، وعلى الرغم من تواضعه الطبيعي، يجد أنه أقل قدرة منهم على تحمل الحياة اليومية، بيد أنه أكثر مهارة منهم في التخلص من هذا العالم، وفي تصور عوالم أخرى. ولكن، هل هذا التصور كاف؟

- سيد "هوغو"!

نعقت السيدة "ميرلان" بصوتها المشؤوم.

- سيد "هوغو"، أشكرك بخصوص الماء، ثم أريد أن أقول لك إن جنازة كينيدي ستنقل في البث المباشر. أنا واثقة من أنها ستكون رائعة. تعال. ما زال لدي بسكويت "لسان الهر".

لقد دُفن "راستابان". لا بد أن "جاكي" قد أخطرت الآن بحقيقة الأمر. وينبغي عليها أن تقوم بدورها بكل جدارة.

- أشكرك يا سيدة "ميرلان"، يجب علي أن أنهي حساباتي.

- أنت ترهق نفسك كثيراً! كنت أكرر ذلك لزوجي، وفجأة مات بينما كان يسمع المذياع. كأنه تعرض لعطل في التيار الكهربائي. ورقد نهائياً! إن الحياة تافهة، أليس كذلك؟ صحيح. بالنسبة لكينيدي، هل أصر عليك؟

- أشكرك سيدة "ميرلان".

- إلى اللقاء يا سيد "هوغو"، ألن تندم؟

- لن أندم. إلى اللقاء يا سيدة "ميرلان".

١٢

٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر.

هكذا تمت الأمور. عندما استيقظت في ذلك الصباح شعرت بأنني تائه. فلم أعرف الغرفة التي أنا موجود فيها. كان ثمة جلبة في الشارع، جلبة حشد من الناس كما لو أن شغباً سيحصل. أتكون هذه مظاهرة؟ ذهبت لأنظر من النافذة. لم أرَ أحداً. إن الجلبة في رأسي إذن. إحساسٌ غريبٌ فعلاً! وبما أنه توجب عليَّ العزم على الإمساك بزمام الأمور، فقد ارتديت الملابس الملقاة على الكرسي، وهي ملابس رجل آخر، وخرجت.

كان "جول برونتان" ينتظرني مستنداً إلى الجدار بنظارته السوداء وكلبه الأصفر الشبيه به.

- إيه! إيه! أنت مدعو إلى "الفندق الكبير" يا سيد "هوغو". والسيدة "بيرت" تنتظرك هناك.

أجبته:

- سيدي الرئيس، على ما أعتقد، نحن على أهبة العثور على الزمن الضائع. بعد بضع ساعات سأدخل للمرة الأولى مخدع السيدة "بيرت". أيناسبك هذا؟

لقد دخل في تلك المسائل العويصة التي أوصلته إلى ما هو عليه: دكتور في جميع أنواع التحنيط، بارعٌ في مواهب الحشو المتعددة، الخ.

أوه، أنا أعرفه! فهو غشاش! يصل إلى أن يجعلني أعتقد أن كل شيء طبيعي - فيما سواي! في حين أن الداء في عينه هو بالطبع. إنه شخص عادي، ولا شيء مميز فيه على كل حال.

أصرَّ قائلاً:

- الفندق الكبير! الفندق الكبير!

وراح يصف لي القناطر والهيكل والبحيرة الليلية والدرج المتحرك وغرفة الموسيقا والممر المحاط بنباتات الزينة والأرغن المعلق وقفص العصافير والسنجاب الميكانيكي... وأنا كنت أسخر من رؤيته وهو يثير عبثاً هذا المقدار من الخيال من أجل أن يقتادني إليه. كما لو كنت غبّياً إلى درجة أن لا أصدق أشياءً مثل هذه!

- أعلم ذلك، قلت له بحزم. لكنني سأذهب إلى السيدة "بيرت".

- يا صاحب القلب الحنون... أيها الولد الساحر... أيها الطيف المجنَّح... دعني أقول لك أيها الشاب إنك متحمس جداً ويجب أن تخفف من حماسك! وإلا، وقعت في الحب نهائياً.

فقلت له:

- سيدي المدير، على الرغم من احترامي الشديد لك، اسمح لي، اسمح لي، أرجوك أن، وأيضاً أن. وإلا، فماذا أفعل، أليس كذلك؟

ماذا باستطاعته أن يجيب؟ كان ينظر إلي مثلما ينظر عالم الحشرات إلى النملة، فيظهر خاصية نادرة مفادها أن سجل الأنواع والأجناس يجب أن يلقى به في النار بالنظر لكونه باطلاً.

- آه، عليك أن تبذل جهداً ما! أن تشوش الآلة! أن تجرؤ على معاندة العلم!

بقيت مصراً على موقفي:

- إن السيدة "بيرت" تنتظرني عند نهاية الجسر، أو في مكان آخر، لا أدري، لكنها تنتظرني.

ابتسم "برونتان" فبانت أسنانه الشبيهة بأسنان العظايات، لا سيّما أسنانه الملبسة بالذهب. قال لي:

- سيدتك "بيرت" تسكن في الفندق الكبير. في الطابق الأرضي، هناك حيث كَتَبَ "آبيركومبري" سابقاً كتابه "هلتر-سكلتر". شرف كبير! ما زالت المسودات معلقة على الجدار. وهكذا بإمكانك أن تتابع قراءة هذا العمل الخالد وقصة "أوستراجون"، "أوستراجون" الحقيقي (لأن العشرات من "أوستراجون" المزيف موجود هنا وهناك). "أوستراجون"! "ناديسلاس أوستراجون"! تعرفه، أليس كذلك؟

هذا ما دفعني للقبول. فتبعته. كان يمشي أمامي ويؤشر بيديه.

- اثنتان وأربعون طبقةً! أجمل فندق في المنطقة! منظر لا يحجب! يا لحظك! مع السيدة "بيرت" السعيدة! سيدة أرستقراطية! شجيرة دفلى وسط حقل من الزهور الزرقاء! عندليب وسط الجنادب! لقد أقسموا لي أن بإمكانها أن تقوم بالحياكة بيد واحدة. أهذا ممكن فعلاً؟

هل قبلت بسبب التعب أم بسبب التأثر أن أطيع مثل هذه المرأة، أم لأنها كانت تترك لي نقوداً على الطاولة مما يمكنني من الخروج

لو أردت؟ ولكن (وهذا ما هو طريف ومضحك تماماً) لو أنني عدت لخدمة السيدة "بيرت" لما رغبت في الخروج. فإلى أين أذهب؟

يمكنني أن أعاين الفندق الكبير، أن أصعد على الدرج، وأزور الطبقة الأولى، والطبقات الأخرى شيئاً فشيئاً. قد يسليني ذلك، ولكن، لا ، لا! يجب أن أبقى عاقلاً. فإن "ميسمر" صاحب السمو كان قد حذرني:

- هناك أفعى سامة على الدرج. أما بالنسبة للممرات، فإن أغوارها مظلمة... وخلواتها شائنة... وخباياها مشبوهة. وآبارها غير مسبورة. وثمة قرقرة هنا وهناك، وفي كل مكان تقريباً ، تحت السقائف وتحت السجاجيد. مثل عواء طويل وأخرس يزداد ويزداد. هل سينفجر، هل سينبثق ممزقاً الديكور إلى ألف قطعة صغيرة من اللحم البشري؟

رحت أكرر:

- يجب أن أبقى عاقلاً حقاً.

وضع "هوغو" قلمه في المقلمة التي كان يأخذها معه إلى الصف عندما كان صغيراً. على غطائها منظر صيني لصخور منحدرة تنمو عليها أشجار الصنوبر واللوزيات. وفي خلفية المنظر نكتشف بيتاً. أيكون هذا البيت هو الفندق الكبير، مسكن السيدة "بيرت" ذو المئة باب... وفي هذا المكان، كانت السفيرة تتشاجر مع نفسها دائماً. كانت تؤكد قائلة: "إنني أتخذ من نفسي صديقة لي".

لم تكن السيدة "بيرت" لتتوصل إلى أن تقنع نفسها. إنها عنيدة مثل خنفساء انقلبت على ظهرها. تظل تحرك قوائمها إلى الأبد إن لم

يأت شخص ما ليقلبها. ولادة غريبة! أي طفلٍ يمكن أن يولد من هذا العناد؟ سيكون طفلاً بلا رأس ولا ذراعين ولا ساقين ولا صدر ولا حوض. حتى إنّه ليس مخلوقاً صغيراً. بل نفاية يمكن رميه في القمامة، بجانب الكناسة التي ظننتها بالخطأ روحي، والتي لم تكن سوى غياب حجتي. نعم، حجتي! وددت لو أن أحداً ما يثبت العكس، أنا الذي بسبب هذه النقطة المحددة حصلت على الشهادات المصدقة من أعلى السلطات المجيدة. حجتي في العيش والكتابة بجميع الأحوال.

لأنني أكتب. أكتب مذكراتي المرعبة وغير المحسوسة التي ستبث في يوم من الأيام نوراً واضحاً، نوراً لم يره جلالته. نوراً بارداً جداً. سأقدمه إلى السيدة "بيرت" الحقيقية، السفيرة، وإلى الأستاذ ميسمر الساحر، من أجل إنارة الليل أخيراً. ربما أن البعض سيعتبرونه مجرد سراج. لا يهم! هؤلاء الناس ينتمون لطبقات أخرى غير طبقتنا. أما بالنسبة لجلالته، فليأتِ هذا الجرذ المتعفن العجوز! سوف أذيقه سهادنا.

ردة فعل السيدة "بيرت":

- آه، اخرس! إن هذا المهرج يجهل كل شيء عن جلالته اللا مرئية! أهو جرذ؟ ربما. لكنه قديم جداً وكبير جداً بأصله! انظر أذنيه وذيله وخيشومه! إنه معرض منحوتات كامل! إنه متحف بحد ذاته! إنه "لوفر"! حتى إنّ الأهرام المصرية لا تستطيع أن تبلغ ذروته. وأنتَ، يا دودة الأرض، أتجرؤ على أن تزعم أن هذا القارض النموذجي ليس جرذ الكنيسة بما يكفي ليروق لك؟ ماذا تريد إذن؟ بومة؟ دجاجة؟

قالت "بيرت" الأخرى الموجودة في المرآة:

- إن سيادتك ليست سوى ثقب في القفل! ولكن أين الباب؟ وأين المفتاح؟

ماذا أسمع؟ ميتافيزيقا الثوار الفرنسيين والمولعين بموسيقا الصالونات والفأوة الخضراء. يكفي أن تدفع من يدعي الشجاعة بطرف إصبعك كي ينهار، هو وارتجاله الغريب.

وبما أنه كان كافياً أن تطرد السيدةُ "بيرت" أخيراً تلك السيدةَ الأخرى التي تشوهها... نستطيع أن نكون سعداء إذن بين أشجار الزعرور (حتى لو كانت اصطناعية)، وبين نخلات الأصص في الفندق الكبير الذي سيصبح ملاذنا وغيمتنا وهوسنا أيضاً. سننظر إلى الأفق المزروع بالصنوبر واللوزيات بعيون جديدة. ويقرأ لنا الأستاذ "ميسمر" بقية مغامرات "ناديسلاس أوستراجون"، صياد الصباح الكبير. يا الله...

ولكن ماذا أدَّعي؟ إن السيدة "بيرت" عنيدة. حياتها الغامضة تخدعني، زبد أسود مزركش بالأبيض، موجة تنبت عليها طحالب الأحلام المجتازة، رمل يغطيه زغب الألعاب التي لم أعاقب عليها... قسم من شبح طائر، ولكن، من الطيف؟ هي أم الأخرى؟ وها نحن أولاء نتحدث، نحبك الأحداث، نوزع ورق اللعب الذي نعلّمه بغية معرفته، وندخن التبغ الإيطالي، ونسأل ونجيب. قد يلزمنا قطار جميل ينطلق خارج المحطة، فيما وراء الفندق الكبير، وفيما وراء اضطرابات الأيام بكثير. قطار أزرق جميل مع قاطرات، صرر من الثلج والسوسن، مطعم بقناديل ذهبية

قديمة، حديقة مغطاة بنخيل ساحر، باحة دار، وواحة في نهاية الغابة.

علّق الأستاذ "ميسمر" معطفه على الشراع. وقال بصوته الساحر الشبيه بصوت الساحر المتدرب:

- أيتها السيدتين "بيرت"، السلام عليكما! وأنت أيضاً، أيها الشاب اللعوب. لقد حان الوقت يا أعزائي. يجب أن نرحل ونبتعد إلى الأبد عن هذه الطبقات التي لا تنمو فيها سوى النباتات الخضراء البائسة. نقطع المراسي! نوجه السفينة نحو القطب أو خط الاستواء! ماذا يهمنا! فلننفخ الأشرعة! وندخل في العواصف الجميلة! ونمطر! ونكون خيط الحلم العمودي!

- آه، أجابت السفيرة، أي قشعريرة لأشجار الحور على البحيرة! انبهار القلب ربما... ماذا تقول، أهي لعبة الأمل؟ عندما كنت أمثل دور "ألسين" أو "جلوربيت"، بل "سيريانتين"، كنت أشعر أحياناً بنسيم البحر يتغلغل في شعري، والندى يجتاحني. حريق حب كبير ونمو أخضر في غرفة انتظار الكردينال - هذا ما كنت أدعوه بهجة العيش.

غير أن "بيرت" الأخرى المشاكسة قالت:

- أيتها الببغاء! الطائر الزاحف! الرأس الأصلع! يكفيك ما قدمت من حفلات راقصة جماهيرية تنكرية، وتكفيك الأوسمة الحمراء! وداعاً للملائكة! فهي ليست سوى دمىً من البلاستيك الأصفر والشعر القطني والأجنحة الحزينة - مهرجون ميكانيكيون بائسون! إن "ميسمر" العزيز على قلبك ليس سوى بخار! جزرك تتخبط.

قممك ترتعد. بلادك البهيجة مخصية! صدقيني أن الحب مصنوع من الزنك!

وقلت أنا :

- يا "بيرت" الأخرى، الندى يبلل وجنتيك. وأنت لا تشعرين ولا تعقلين. يأخذنا النوم في عذوبة لا تقاوم. سنغادر الرصيف. سترافقنا أوركسترا العصافير. لقد قطعت المرساة وانتهى الأمر.

نافذة "آجيوس" ، أليس كذلك؟ إن الأستاذ "ميسمر" يعرف الرقم واللغز. صناديق مغطاة بمرايا داخلية.

ذاك هو الصحيح الصحيح.

١٣

نظر "جول برونتان" إلى "هوغو" نظرة شفقة مطعّمة بالرعاية.

- أنت لست على ما يرام يا ولدي. فلونك أصفر. وهناك حلقات حول عينيك. لو لم أكن أعرفك لأقسمت أنك أمضيت الليل في تدبير الدسائس. أتكون مصاباً بالانفلونزا؟

قال "بواسار" وهو ينقب في أسنانه بعود ثقاب:

- منظر طريف، يبدو السيد "هوغو" مثل الخارج من القبر!

- لا أسمح لك! أجابه "هوغو".

- آه، في الواقع، قال "برونتان"، يبدو أنك لم تلحظ التغيير الذي يحصل في الأعمال... فالمحاسبة بالقلم، مثلما تفعل، ماذا أقول لك... انتهى وقتها. هذا ما أردت أن أخبرك به.

بعد عشرين دقيقة، رتب "هوغو" مكتبه للمرة الأخيرة وغادر المكان. وبما أنه لا يعلم أين يمكنه أن يذهب في هذه الساعة المبكرة، فقد توجه إلى مقهى "ديزار". كانت "لادوكول" شاخصة خلف صندوقها تطلي أظافرها بريشة تغمسها في قارورة بانتظام.

عندما رأت "هوغو" يدخل، ظلت يدها اليمنى معلقة على ارتفاع فمها الفاغر.

- عجباً! صرخت، هل أنت مضرب عن العمل؟

- بل بطّال يا سيدة "لويز" بطّال... أنا مطرود!

- أتمزح يا سيد "هوغو"...

- هكذا هو الأمر. لم أعد أعمل. ففي أيامنا لم يعد الناس يحسبون بأدمغتهم بل بآلاتهم.

استشاطت المحاسبة غضباً:

- إننا نعيش في عصر غريب. يعملون ذلك معك أنت! هذا لا يصدق! آه، سوف نرى العجائب! مثلما فعلت الصبية الغجرية التي تعرفها... رمت بنفسها تحت القطار من أعلى الجسر، قطار الساعة الثانية عشرة وثلاث وثلاثون دقيقة. هكذا قالت الجريدة.

ها أنذا أحلم. موكب خرافي مهيب من العربات والسيوف والأجنحة والستائر المزركشة والبيارق والرماح المنتصبة والأبواق. الخوذ تلمع تحت ضوء القمر. والخيول تحمحم. جوقة مغامرة صاخبة ونذير الحرب وحيد في الليل، وحيد جداً. كل ذلك يمر بجرأة في الوادي. نرحل. يجب أن نرحل. يهتز المركب فوق الموج أكثر بياضاً من الثلج الطبيعي، حزمة من الشرر في رطوبة حديقة الطفولة الجميلة حيث تدور الشفافية الحميمية حول نفسها.

أغلقت عيوني عن الفندق الكبير. وداعاً أيتها الطبقات الهلامية! وداعاً يا نخلات الأصص! وداعاً أيتها الكلاب العادية! وداعاً أيتها الغرفة الدبقة! وداعاً أيتها التماثيل الشمعية! إن السيدة "بيرت" وتوأمتها تفتحان مظلتهما. والأستاذ "ميسمر" يمشي في المقدمة. وأنا، بعد ابتسامة قصوى للإمعات، تركت أناي على البطاقة البريدية الصفراء، وعلى الاندفاعات الخضراء المزرقة، ورحت أرقص مع

صرخات السنونو المتقطعة، ومع تموجات المياه على رخام نبع مزركش بالظلال. هذا قدرنا: أن نرحل مثلما نرحل الآن، أن نسافر بعيداً وإلى الأبد.

- هه، قال "مورينو"، أنت هنا؟

- لقد طرده "برونتان"، قالت المحاسبة. لم تعد هناك أهمية للبشر في الوقت الحاضر.

أغلقتْ سدادة قارورة طلاء الأظافر وحركت يدها اليسرى كي يجف الطلاء.

"لقد انتحرت "آميلي" كي تلتحق بي". خطرت هذه الفكرة بسرعة في رأس "هوغو". فقد ظنت المراهقة أنه ينتظرها في الجانب الآخر، ليس في الموت، بل في الحياة الأخرى، وكانت على حق في ذلك. كان لا بد له من أن يغادر مقهى "ديزار" بسرعة، ويعود إلى غرفته حيث سيجدها قد وصلت قبله.

- هل أنت ذاهب؟ قالت "لادوكول" مندهشة. لا بد من أنك منزعج فعلاً.

كيف يمكن للناس أن يفهموا ما يحصل؟ كل شيء حصل بسرعة: مقتل "راستابان"، ظهور "آميلي" وانتحارها، طرد "برونتان" له، وفي الوقت نفسه، ولكن في مكان آخر، انطلاق الفندق الكبير بصحبة الأستاذ "ميسمر" والسيدتين "بيرت"، البيضاء والسوداء. المهم في هذا وذاك يكمن في ربط الماضي بالحاضر، والحلم بالواقع، لأن الأمر يتعلق في جوهره بالوقت نفسه وبالعالم نفسه. الحياة الأخرى هي هذه. كان "هوغو" قد تعرف عليها في

كتاب "رالف آبيركومبري". ومن المناسب أن يقرأ صفحات منه على مسامع "آميلي".

ولكن ما الذي يحصل؟ كلما كان "هوغو" يتقدم في شارع "بيرييه"، كان هدير السيارات المتواصل يتلاشى على الرغم من أنه، عندما اقترب من محل صاحب القبّعات، دخل في صمت مطبق شبيه بالصمت الذي يسود على الحقول في صباح ثلجي. لم يرَ في هذا الشارع بائع الكرات الحمراء، ولا الفتاة التي تلعب على الدولاب فترقص جدائلها، ولا المتدينة التي ترتدي قبعة كبيرة وتقرأ في الكتاب المقدس. وعلى الرغم من ذلك فقد تصور أنه رآهم في مكان آخر، في زمن غابر جداً، لكنه لم يستطع تحديد المكان. بدت له هذه اللوحة الصامتة ساحرة جداً. فشعر بسعادة غامرة بحيث لم يعد يشعر بمرارة طرده. بماذا تهمه من الآن فصاعداً هذه الحياة التي تحمَّلها بدلاً من أن يقبلها؟ سوف يجد "آميلي". ومعها سيلتحق بالأستاذ "ميسمر" والسيدتين "بيريت". وهكذا يمكنه أخيراً أن يدمن تعاطي الحياة الحقيقية.

على قرص الدرج المزهر مثل حديقة في الأعلى، استقبلته السيدة "ميرلان" بفرحة غامرة. كانت تلبس فستان حفلة راقصة، وتاجٌ يحيط بشعرها. أصبحت أصغر من عمرها بعشرين عاماً. اهتزت من الفرح وقالت:

- آه، سيد "هوغو"، أي مصادفة سعيدة! لقد وصلت الفتاة الشابة، وهي تنتظرك. الله! كم هي ساحرة!

دخل "هوغو" إلى شقته الصغيرة التي ضربتها الشمس بأشعتها للمرة الأولى. كانت تطل على البحر. وفي الداخل، كانت "آميلي"

تجلس حقيقةً على طرف الديوان، وتدمدم بأغنية. عندما رأت "هوغو" داخلاً، نهضت وهرعت إليه. كان فستانها الخفيف يتطاير حول جسدها الفتي.

هل أدركت السيدتان "بيربت" أي ظل يسبقنا أو يتبعنا؟ هل فهمتا كلمات الملاحين هناك؟ هناك ملاحون آخرون يرافقوننا. ولكن إلى أين؟

- بماذا تحلم يا "هوغو"؟

يجب أن نستطيع وضع المرآة على جانبها، وأن ندير المفاتيح في السر كي ننفتح على أعراس الطفولة. كان الأستاذ "ميسمر" يقرأ أمثالاً على الورق، رفع رأسه وأنشد بالإنجليزية:

"كانت الشمس تسطع على البحر

تسطع بقدر ما تستطيع

بذلت جهدها كي تجعل

الأمواج ناعمة وساطعة

وكان ذلك غريباً جداً

ذلك أن الوقت كان منتصف الليل".

الدفتر ٣٢:

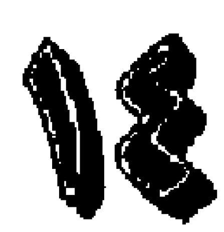
سنزور الجزيرة العجيبة، والممر المحاط بالأشجار، والحديقة الخارجية الغربية، والبناء الزجاجي، وشِعب أشجار "الجاكا"، وقرية "كاجارا" الدائرية، وكهف الكريستال، والنهر البهيج، والميدان

المداري، ومضيق الملائكة الذين يتأملون ويحركون الأمواج بنَفَسهم الأزرق. سنذهب إلى نهاية المد، ومنعطف الأنوار، ومطايا الخرافات، وحافة الأضرحة حيث تتنفس الحسناوات النائمات. سنتمدد على الرمل الطاهر. سيكون ضوء القمر قشعريرتنا من قبل ذاكرة التاريخ. سنكون البخار قرب النبع، والجفن المبلل في تجويف العين، والرحيل الثمل نحو خصوبة الصحراء.

- هيه، "هوغو" بماذا تحلم؟

نربي عشاً في نينوى أو بابل، هناك وهنا أكثر، في اليوم الملتهب مثل كوة ننظر إلى العالم من خلالها... ولكن ما الذي يهمس، إن لم يكن الموت بين الأوراق؟ وعندما نعاود الخطا سنجد المسكن خراباً. العودة ممنوعة! سننسى الغابة الخفية. ونقرر أن الحياة حمراء من العنب المفعم بالدم الملكي، وأنها انتهاك الهذيان!

أخذت بيد "آميلي". ورحنا نمشي داخل صورة من الصور.



تكلمت "آميلي" عن طفولتها.

لقد ولدت في عربة خشبية كان يجرها حصان أعور يدعى "تابيز". كان كلبها يدعى "كارنوب"، وكان أبيض اللون مع بقع بنية على مؤخرته. كان والداها أعضاءً في موكب سيرك ينحدر كل أعضائه من "الموشيشاناريين". كان لديهم إلهٌ وقديسة. لم يكن للإله من اسم. وكانوا يسمون القديسة "سارة" حيناً، و "لاجراند" حيناً آخر. كانت البنت البكر هي الساحرة التي ولدت الناس الأوائل وعلمتهم اللغة. وبما أنها خالدة، كانت تحمي الرجال والنساء الذين يدعونها وقت الشدة. وكانت "آميلي" تحبها.

في الخامسة من عمرها تعلمت الطفلة اللعب على الأرجوحة والحركات البهلوانية. وفي العاشرة، أصبحت ترقص على الحبل وتلعب ألعاب الخفة. في الثانية عشرة، أصبحت تتجاوب مع المهرج "زانزيار" وتعرض هرماً من الكلاب. في الثالثة عشر، أصبح الحاوي الهندوسي يقسمها قطعاً في صندوق ويمررها من دولاب. في الرابعة عشر، ذهبت بعد أن تعبت من السيرك.

وعندما اشتغلت خادمة لدى دوقة خرفة، سرقت التمثال الصيني ووزعت النقود على المتسولين في الشارع المسدود حيث اختبأت. أُوقفت

واعتقلت لمدة عامين. وكانت قد خرجت توّاً من جهنم عندما رآها "هوغو" في مقهى "ديزار".

تلك رواية. وفي رواية أخرى أنها ابنة "مهاراجا كالندار"، ترعرعت في قصر من الذهب والكريستال، بين الينابيع الفوارة وطيور الإوز. وكان يقوم على خدمتها جيش من الخدم والعذراوات الناعمات. وقد خطفها الغجر أثناء مرورهم، وأصبحت واحدة منهم ففضلت العيش في الطريق على العيش في المأوى، وبرعت في العزف على الكمان لدرجة أنها راحت تقدم عروضها وهي في الخامسة عشر في أفضل "كاباريهات" باريس. هناك وقع حادث بريريٌ نوعاً ما. فقد حاول شخص روسي أن يغتصبها، فنزعت حنجرته بأسنانها. وهذا هو سبب اعتقالها في "بتيت روكيت"، وسبب مشاجراتها العديدة مع المعتقلات الأخريات. وبعد ثلاثة أشهر، فضلت الإدارة إطلاق سراح هذه الشريرة كي تنعم الزنازينُ بالهدوء.

ترى من كانت في حقيقتها؟ لاعبة في العرض حيناً، ومغنية في الساحات حيناً آخر، وسواء أولدت في الأسمال أم في المخمل، فإنها تتمتع بملامح أميرة شرقية ويبدو أنها عاشت جميع التجارب. لم يكن "هوغو" ليسأم من همسها. وعلى الرغم من ذلك فهي لم تكن سوى نسمة، وشعاع من ضوء القمر، وبخار يتصاعد فوق بركة ليلية.

ينبغي أن أرحل... أن أجد الأستاذ "ميسمر" والسيدتين "بيرت"، وأقدم "آميلي" لهم، ونرحل. نافذة "آجيوس"، أليس كذلك؟ وأعيد قراءة هذا النص الغريب الذي كتبه "رالف آركومبري"، هذه القصة التي أثرت في هذا الشاب، والتي يعيد قراءتها غالباً كي يلتقط الدلالة

القادمة من بلد بعيد على ما يبدو. ما هذه القصة. هي ذي العبارات تتحدث.

"كان قد مشى طويلاً! كان الأفق يتراجع أمامه. خطوة فخطوة. وعلى جانبيه، كان هنالك رجلان أسمران يرافقانه مثل ظلين يقترنان به. هل هما من الأصحاب القدامى الذين التقاهم سابقاً في نزلٍ، في إحدى هذه الحانات المشبوهة حيث تبيع النسوة الواهنات أنفسهن؟ أو أنهما مساعدا الجلاد اللذان يقتادانه إلى المشنقة، أو ممثلان بمظهر قوادين؟ أو أنهما ملاكان متعبان يجتران باستمرار مضغة تخليهما عن المقعد السماوي؟

كان الرجل يحترز من الحديث إلى الرجلين الآخرين. إذ كان يعلم أن أقل حديث مع الشيطان سيجبره على أن يتوقف على جانب الطريق، وعلى أن يفتح صرَّته، وأن يغوص شيئاً فشيئاً في سكون العناصر. كان يتقدم بعناد على الرغم من اليأس. أهذا حجٌّ أم ضياع؟ لطول ما مشى، ظل ساكناً، متجمداً في مكانه. ثم، ذات صباح - لا بد أنه صباح نيسان/إبريل - كما لو حصل انفجار في غناء الطيور، اشتعلت السماء، وراحت الشمس تدور في الأفق من طرف لآخر بينما انفتحت الأرض مثل برتقالة يانعة. ومنها انبثقت موسيقا جميلة لدرجة أن الرجل وجد نفسه محمولاً بقفزة واحدة إلى قمة الجبل. من هذا المكان العالي، سوف يكون بإمكانه أخيراً أن يرى ما لم يره أحد من قبل".

ماذا رأى الرجل الذي يتكلم عنه "آبيركومبري"؟ ما زال "هوغو" يسأل نفس السؤال مذ قدم له الأستاذ "ميسمر" هذا الكتاب، وهو نوع من رواية يتحلل الواقع فيها ويتركب حسب ما تريد الكتابة.

- أوه، قالت "آميلي"، هذه ليست سوى كلمات. أليس من الأفضل الركوب على متن الرياح؟

كانت قبيلة "الموشيشانار" تعرف كيف تركب الريح. هذا أول درس يعطى للطفل. ما الفائدة من تعلم القراءة والكتابة! ما الفائدة من الحياة إذا كان المرء يجهل كيف يركب على متن الريح! كان أسلاف الفتاة الشابة قد تعلموا علوم مصر القديمة ونشروها حتى "براغ" حيث اطّلع رجل يدعى "ساندیفوج" على أسرارها، وأودعها في كتاب، لكن الكتاب قد ضاع، و "الموشيشاناريون" هم الوحيدون الذين ينقلونه من فم لأذن، ومن جيل إلى آخر. وهذا أمر جيد.

- سيد "هوغو".

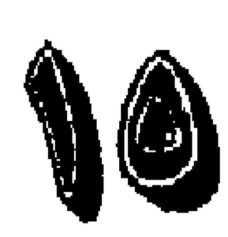
كانت هذه هي السيدة "ميرلان".

- هناك سيدة في الدرج تطلب مقابلتك.

- سيدة؟

- أستطيع أن أقول إنها شخصية معتبرة...

فتح "هوغو" الباب، فدخلت السيدة "بيرت".



- أيها العزيز الغالي "هوغو"! كم أنا سعيدة بلقائك بعد هذه السنين!

إن السيدة "بيرت" لم تتغير. من أين انبثقت؟ بين الحلم والحقيقة لا يوجد مكان لنسمة هواء. بدت السفيرة مهيبة وجليلة مثل قديسة، وهي تلبس أجمل الحلي والشرائط على فستانها الأرجواني المرصع بالمجوهرات. وبدا وجهها الذابل مثل مغيب الشمس في الصيف، وشعرها الأحمر فوقه قلنسوة من جلد الثعلب مع غلالة تحجب تقريباً نظرتها الشبيهة بنظرة وحش مفترس مترصد. كانت تتكلم إلى ظلها حتماً:

- أترين يا "بيرت" هذا الطفل (ذلك أنه يبقى طفلاً بالنسبة لي) الذي استقبلته مشفقة عليه عندما كانت أمه (العزيزة المسكينة) تقدم جسدها للرجال، للرجال العابرين والجشعين والشهوانيين. للأوغاد أبناء الشوارع. حينذاك أخذت هذا المخلوق الصغير في حضني بدافع من الحلم والدماثة، وقدمت له المأوى في بيتي الغالي، فأطعمته، بل منحته حق قراءة بعض الألبومات المصورة التي اشتريتها في شبابي الزاهي. وتكرمت عليه بأن جعلته يقدم لي خدمات تقوم على تأمين الحاجات من المحلات المجاورة. على أنني كنت أدفع له نظير خدماته.

كل عمل يستحق أجراً، أليس كذلك؟ مجمل القول إنني سعيت لتربية هذا المخلوق المولود في الظلام كي يستطيع أن ينتقل إلى النور شيئاً فشيئاً بفضلي.

- مرحى لك! قالت "بيرت" الأخرى وهي تصفق بيديها. أنا فخورة بك.

- وأنا، قال الأستاذ "ميسمر"، عندما غادرتما أيتها السيدتان، وضعت هذا الولد تحت جناحي. كنت أعلم أنه يتمتع بذكاء متوسط لكنه كافٍ. أحببت أن أصنع حديقة فرنسية من قطعة البور هذه. وهكذا علّمته الحساب والأدب. وللأسف أن هذا الطفل كان حالماً، فلم يستطع أن يواظب على الدراسة. ولو لم يكن كذلك لاستطعت أن أجعل منه مدير شركة، أو سياسياً بارزاً، بل حتى رئيساً للجمهورية، لكن أحلامه كانت تأخذه لمكان آخر. ولما خرج من يدي، كان عليه أن يكتفي بأن يعمل محاسباً لدى صديق كريم يعمل تاجراً. ومع ذلك، وبالنظر للبالوعة التي انتشلناه منها، يا سيدتي العزيزة "بيرت"، يمكننا أن نعتبر أننا قد تصرفنا بإنسانية عالية، وأننا نستحق التهاني على هذه الرعاية.

- مرحى لك! قالت السيدتان "بيرت". أستاذ "ميسمر"، أنت إله!

- أشكركما أيتها النبيتان المنتميتان للعصر القديم. أما بالنسبة لهذه الفتاة الشابة التي تقف في ظل هذا الشاب، فمن هي؟ ومن أين أتت؟ وإلى أين تذهب؟ يا "هوغو"، هل تنوي أن تأخذها معنا في سفرتنا القادمة.

شرح "هوغو" لهم كيف تعرف على "آميلي"، وأكد لهم أنها ستكون رفيقته من الآن فصاعداً. بدا الأستاذ "ميسمر" متأثراً.

صرخت "بيرت" السيئة أن هذه فضيحة. فهي تعرف من تكون هذه الفتاة، "غجرية من شارع "كاسبلو"، قوادة، سارقة دجاج". أما "بيرت" الطيبة فقد حركت مروحتها اليابانية وهمست بصوتها الشبيه بصوت "الفيولونسيل":

- أيتها القصيدة الغزلية الربيعية... سيأتي يوم وأقترن بجلالته مثلك...

قالت قرينتها وقد خرجت عن طورها:

- جلالته! إنه لا ينزل إلا مرة كل عام، أيتها المسكينة البلهاء! شريطة أن تسنح الفرصة لذلك! ولكنك، أيتها الجاحدة، تجرئين على أن تفتحي فمك، وتصوغي كلماتٍ وجملاً وما لا أدري مما يصدر موسيقا ناشزة لا معنى لها. ربما! ربما! تجرئين!

- اعوي كما يحلو لك، أجابت السيدة "بيرت". فأنا أضحك. آه، كم أضحك! بالاختصار عندما ينزل جلالته سأكون جاهزة لاستقباله.

قالت "بيرت" السيئة:

- أنت؟ تستقبلينه؟ أنت أيتها البعرة؟ أيوسخ جلالته حذاءه في حصيرتك، أتعتقدين أن له جلد حمار الوحش؟

قالت "بيرت" الطيبة:

- هنا يبدو غباؤك يا سيدتي! إن جلالته يطير حافي القدمين إلى أولئك الذين يحبهم. إنه صافٍ كالندى، خفيفٌ كهواء "كيليمانجارو"، طري مثل وجنة طفل في المهد. إنه لا يلبس حذاءً يا سيدتي!

هل "بيرت" مجنونة؟ فهي لا تنفك تكلم نفسها وتجيبها. انتهت هذه المشاجرة الأبدية حين تعبت ونامت على الديوان البنفسجي في الغرفة الخاصة التي لا يدخلها أحد. إن لم تكن قد استمرت في هذا الحوار المجنون أثناء نومها...

- يا "آميلي"، قال "هوغو"، سوف نبحر على سفينة "ماري - جان".

من نافذة الغرفة، رأوا السفينة على الرصيف. إنها سفينة سريعة مهيبة ذات أشرعة كبيرة بيضاء يحاول بحارة أن ينصبوها ويرفعوها.

- بسرعة! يجب أن نرحل!

ولكن ما هذا؟ إنهم يقرعون الباب.

- سيد "هوغو"، هذا أنا، "باريوزان"! يصحبني "ميرون". أخبرتنا السيدة "لويز" أنك طُردت. جئنا لنؤكد صداقتنا ونعلن تضامننا معك.

عما يتحدثون؟ سوف تختبئ "آميلي" في الغرفة.

- آه، قال "هوغو"، كنت على وشك أن أذهب.

- سوف لن نمسك بك، قال العطار.

ودخلا! "باريوزان" وكرشه المحاط بسلسلة من الذهب، و "ميرون" وبزته الواسعة.

- يُعرف الأصدقاء عند المصائب.

- أما "برونتان"، فأي خنزير هذا! يطرد رجلاً مثلك، وفياً أكثر من الوفاء. لم يعد هنالك أي اعتراف بالجميل.

- ولا أي احترام. عزيزي "هوغو" ثق بتفهمنا وتعاطفنا القوي معك.

- ولكنك بالطبع ستجد عملاً. رجل مثلك يستطيع أن يجد مكاناً على مقاسه.

- لو أنني بحاجة لمحاسب....

كان الاثنان يتأرجحان من قدم لأخرى.

- سأرحل، قال "هوغو".

- بعيداً؟ سأله "باربوزان".

- لا أدري.

- أوه، قال "ميرون"، لا تقلق، إجازة صغيرة وتصبح على ما يرام. ثم ستكون قد سويت الأمور عندما تعود.

- سنقوم بحفلة صغيرة.

- سندعو "لادوكول"، قال "ميرون" مازحاً. آه حلمي هو أن أرقص "التانجو" مع السيدة "لويز"!

- عندما كنت شاباً كنت أفضل أغاني "فوكس - تروت". قال "باربوزان".

- آه، إنها مثل غناء الجوقة، قال "ميرون". كنت أعشق الجوقة و "الفوكس - تروت"، أما الآن فلا هذه ولا تلك، فقد انتهى الأمر.

- والحانات الريفية؟ كنت أذهب إليها لأرقص مع السيدة "باربوزان" عندما كانت فتية. كانت شرارة حقيقية! مضى الزمن وها نحن أولاء نمضي معه.

قال "باربوزان" متأثراً:

- كل ذلك كي نقول لك إننا نحبك بصدق يا صديقنا الطريف...

- أشكركما أيها السيدان. أشكركما جزيل الشكر. ولكن ينبغي عليَّ أن أرحل ذلك أنهم في انتظاري.

- إذن وداعاً. وإلى اللقاء القادم، أليس كذلك؟

- بالتأكيد يا سيد "ميرون".

- وداعاً يا سيد "هوغو". اعتنِ بنفسك جيداً.

ذهبا. أغلق الباب فخرجت "آميلي" من مخبئها وقالت:

- إنهما الأخوان "مورايا".

- من؟

- هذان اللذان خرجا تواً. ألا تعرف اسميهما الحقيقيين؟ إنهما "زاريف وكليرجي مورايا"، من قبيلة "يوسوم" الشريرة التي قتلت والدي منذ ألفي عام. إنهم يعذبون ويغتصبون ويذبحون!

- صحيح، أجابها "هوغو"، فالعالم الذي أرتاده ليس سوى ديكور، أي عالم مزيف. يخدعونني من وراء ظهري. هيا يا "آميلي". يجب أن نهرب، أن نجتاز الظاهر ونصل إلى الحافة الأخرى...

- لا حقيقةَ موجودةً! نحن نسكن في كذبة. ألا تفهم؟

هتف "هوغو":

- أنت موجودة! هذه الحقيقة تكفيني.

ضحكت. رغب في أن يضمها إلى صدره، فما وجد سوى الفراغ.

١٦

بعـد أن أخبرتـه محاسـبة مقهـى "ديـزار" بـذلك، قـرأ "هوغـو" في الجريـدة، هـو أيضاً، أن فتـاة شـابة قـد انتحـرت فرمـت بنفسـها مـن أعلـى الجسـر تحت قطار الساعة الثانية عشرة وثلاث وثلاثون دقيقة. ومما لا شـك فيـه أن اسـم الـضحية لم يـذكر لأنهـا قاصـر. ومـع ذلـك، وكمـا فكـرت "لويز بوزيان"، فلا بد أنها الغجرية الصغيرة التي جاءت إلى المقهى. والأكيد الأكيد، كما فهم "هوغو"، وبما أن "آميلي" كانت ترغب في لقائه، فقـد توجب عليها أن تلج طريقاً دقيقـة، طريقـاً مـن الطـرق الانتقاليـة الـتي تـكلـم عنها "آبيركومبري" في عمله. وإن الحدث الذي يسميه النـاس بـالموت مـا هـو في حقيقـة الأمـر سـوى ممـر خفـي يلجـه الـسحرة كـي ينـدسُّوا في متاهـات الواقع الخداعة. و "الموشيشاناريون" هم البارعون في هذه المهارة الفنية.

خارجاً مـن عمارتـه، اصـطدم "هوغـو" بالـصيدلاني "فوشـو". وهـو رجـل كئيـب يلـبس الأسـود دومـاً، وذو وجـه صـلب وعيـنين خـضراوين مـائلتين إلى الزرقة. يخفي صلعته تحـت "باروكـة"، ويخفـي حَوَلَ عينيـه خلف نظارة غامقة.

- آه يا سيد "هوغو"، أي حزن، أليس كذلك؟

- فعلاً يا سيد "فوشو".

- وفضلاً عن ذلـك، فسوف تمطـر. كانـت تمطـر عنـدما فقـدت زوجـتي قبـل عـشرين عامـاً، ولـم ينقطـع المطـر مـذ ذاك إلا أيـام الريـاح

الشديدة وهي أسوأ من المطر! حيث يدخل الغبار في أنفك وأذنيك. ينتهي المرء بأن يصبح غريقاً أو مغبراً. وربما الاثنان معاً. وأنا لا أعرف السباحة! ولكن بالاختصار، فإن المسألة لا تكمن هنا.

كان "هوغو" على وشك أن يسأل أين تكمن المسألة عندما استأنف الصيدلاني حديثه:

- أنا سعيد برؤيتك فعلاً. أنت لم تلحظ غيابي عن مقهى "ديزار"، أليس كذلك؟ حسناً لا أريدك أن ترتاب حول تصرفي. فالحقيقة أفضل من كل الافتراضات. أليس كذلك؟

- بالتأكيد يا سيد "فوشو"!

- إذن اسمعني جيداً. يجب ألاّ تقول لأحد ما سأكشفه لك. فأنا أصر على أن يبقى الأمر سرياً. هناك آذان كثيرة تستمع هنا وهناك، مما يجعل الفضيحة كبيرة. بيد أنني على ثقة كبيرة بتكتمك. فأنت لست من هؤلاء الأشخاص الذين يهذرون في كل موضوع وينشرون الشائعات بالتضمين والتلميح الكريه. إذن... اقترب قليلاً، عليّ أن أقول لك ما أعتقد، وحتى لو على مضض: إن "لويز بوزيان"، "لادوكول" نفسها، قدمت لي عروضاً شائنة. لي أنا! لرجل بهذا العمر! لأرمل وفيٍّ لذكرى زوجته الغالية! لصيدلاني من المرتبة الأولى! هذه المرأة الفاسدة أرادت أن تظهر لي عريها. أقول: عُـ رْ يَـ هَا. بعد ذلك، لم أعد أستطيع، يا عزيزي "هوغو"، المجيء إلى مقهى "ديزار". فالأمر يتعلق بكرامتي. ثم إن الكؤوس ليست نظيفة أبداً في هذا المقهى البائس، ورائحة البخل تفوح من كمية المقبلات التي يقدمونها، تفوح وتدخل الأنف تماماً. وعندما أتحدث عن الأنف فلا بد من أن يكون هناك رائحة! رائحة سمك فاسد! أما بالنسبة للرواد الآخرين، "باريوزان" و "ميرون" و "مورينو"، فهم يستمتعون بهذه

الرائحة الزنخة! كأن العالم مصنوع من كومة النفايات! أما بالنسبة لي، يا سيد "هوغو"، بالنسبة لي أنا الذي أتكلم فالعالم مصنوع من القيم! هم لا يفهمونني. حتى لو تمزق العالم إلى أسمال، فسأبقى شامخاً وراسخاً كي أكون شاهداً على عظمة الكائن البشري. إذا كانت باريس تساوي قداساً، فإن الكائن البشري يساوي عشرة قداديس، أليس كذلك؟ ومن جهة أخرى فأنا أتناول القهوة والمقبلات الآن في مطعم "تروا جلوب"، وهو ملتقى المفكرين. هناك يقدِّر الناس على الأقل أهمية الكلام، فلا يثرثرون كالببغاوات، أما المحاسِبة فهي رجل!

تابع "فوشو" خطابه الطنان من دون أن ينتبه إلى أن من يخاطبه قد شرد بعيداً.

- انظر يا صديقي العزيز، يجب على المرء أن يحافظ على مرتبته. أبي الذي كان مساعداً في الخيالة ثم أصبح محترفاً، كان يكرر ذلك لي دائماً. "اترك الرخويات تسير بالقباقيب، أما أنت فاحرص على تلميع حذائك". ومن جهة أخرى، وفي العصر الذي نعيش فيه، لو لم يحافظ البعض على رؤوسهم مرفوعةً، لكان المجتمع مجرد نفايات لحمية بلا دماغ، نفايات على وجه الماء. وأي ماء! الماء الآسن! من رائحة المطر يمكنك أن تعرف الإناء. والدليل على ذلك أن السماء ملوثة، هي الأخرى. ورائحة العفن تفوح منها. ونندهش لأن الكنائس قد تحولت إلى مواخير. ذلك أنهم لم يعودوا ينشدون فيها باللغة اللاتينية! والنتيجة: لم يبقَ لي سوى أن أطلق النار. بم على "باربوزان"! بم على "ميرون" و "مورينو"! أما بالنسبة إلى "لادوكول"، هذه الجرادة العجوز، ماذا نصنع منها... طعاماً للثعالب؟ إني أشك في أن الثعالب تستطيع أن تتقبلها! كل شيء مائل إلى الانهيار. هي ذي الكلمة المناسبة. الانهيار! وعلى الأقل، في زمن السيدة "بيرت"، كانت الأشياء تأخذ مظهراً

آخر. كم كانت حفلات الاستقبال بهيجة! كنتَ أصغر من أن تحضرها، ولكني وزوجتي حظونا بشرف الاستقبال فيها. يا للموسيقا العذبة والأطباق الفاخرة والأحاديث اللذيذة! الأرستقراطية في كل عظمتها! كان رئيس ديوان المحاسبة إلى جانب رئيس شرطة باريس، وكان الممثلون الشهيرون وسط الوزراء والنواب. كنا نتذوق الكافيار بملاعق من ذهب. الجنة على الأرض! وفي الواقع، على الرغم من تواضعي، فلا بد من أن أعترف بأنني كنت شخصاً حميماً. كانت السيدة "بيرت" تناديني: "يا ابن مقرض الجميل". كانت تعبر عن جميع الأقوال بهذا القول البسيط! ثم ذهبت. ومنذ ذلك اليوم يسير كل شيء نحو الهاوية. فقد ماتت زوجتي بنزلة برد، وتدهورت البورصة، ولم ينقطع المطر عن السقوط مدراراً.

شعر الصيدلاني، لدى استحضار هذه الأشياء، بانفعال قوي جعله يجد صعوبة في التنفس. استفاد "هوغو" من ذلك فحاول الابتعاد. من ذا الذي يستطيع أن يعرف شخصية السيدة "بيرت" أفضل منه؟

- هيه! هتف "فوشو". لا ترحل. أريد أن أقول لك... أنت تعرفها، أنت، تعرف تلك السيدة الكبيرة. لقد انتشلتك من الوحل، وصنعت منك رجلاً. أنت مطبوع بخاتمها. كانت ملكة وأنت كنت أميراً. ماذا يمكنك أن تفعل مع أناس مثل "باربوزان" و "ميرون" و "مورينو"؟ هذه المجموعة من الخدم! هذه الأقنعة المضحكة! آه، افتخر بأنك كنت ابن مثل هذه السيدة بالتبني! يمكن أن يتم إنقاذ العالم بأبطال مثلك. والباقي هراءٌ وصديدٌ وفساد.

عندما قال هذه العبارات، أخذ يد "هوغو"، وشدَّ عليها بقوة، وهو يطلق أصواتاً تنم عن الرضا، ثم رفع قبعته، حيَّاه، ورحل.

١٧

بعد ذلك بقليل، وعندما مر "هوغو" أمام محل صانع القبّعات، سمع صوتاً كصوت الأرنب على إيقاع طبل يدق النفير. غير أن التاجر المحترم انبثق كشيطان في هذه اللحظة نفسها، ويداه ملتصقتان على أذنيه.

- يكفي! يكفي! كان يصرخ إذ يشعر أنه فريسة مجون لا تتناسب مع كرامته المألوفة.

- هيه! قال "هوغو" مندهشاً. ماذا يجري؟

- إنه ابني! يعتقد أنه موسيقي! آه يا سيدي، كم أنت محظوظ لأنك عازب! وكأن الزوجات لا تكفي، بل لا بد من الذرية أيضاً! أنا لا أسعى سوى لإعداد القبعات الأكثر جودة وأناقة في باريس كلها. وانظر! كيف يمكنني أن أستغرق وأعمل في مثل هذا الصخب! اسمع هذا! هل لهذا الصخب اسم معروف؟

لم يكن "هوغو" يتمتع بأذن موسيقية، غير أنه بدا له أن النغمات التي تصدم صدغيه لا ترتبط إلا قليلاً مع "جان - سيباستيان باخ". كان الأستاذ "ميسمر" يعشق "جان - سيباستيان باخ" (الذي كان يلفظه "باغ"). ففي أيام الاحتفالات، كان صالون السيدة "بيربت" يتزين بأوركسترا كانت تعزف مقطوعات "لباخ" (الذي كانت تدعوه باسمه الأول فقط وتسبقه بعبارة "ابن عمي الألماني العزيز").

- بالطبع، قال "هوغو"، ليس هذا "جان - سيباستيان باخ".

- ولا حتى "موزارت"! أضاف صانع القبّعات. آه، في عصرنا كان الأمر مختلفاً! فعندما كانت السيدة زوجتي شابة كانت تغني الميلوديا فأرافقها على البيانو. وهكذا تعرفنا واحدنا على الآخر. كان صوتها رخيماً جداً. لم يكن بقوة صوت المطربة اليونانية "كالاس"، لكنها لو اشتغلت عليه أكثر... أتعرف ماذا يعني ذلك؟ نقول إننا نذهب إلى الهند لكننا لا نقوم بأكثر من اجتياز الشارع.

فكر "هوغو" أنه في الذهاب على متن "ماري - جان"، لا حاجة حتى لاجتياز الشارع.

- في نهاية كل شهر، تابع البائع (ماذا كان اسمه؟)، هناك الكمبيالات، والفواتير الواجبة الدفع، وأجر العامل، والوصفات الطبية، إذ لا بد من أن أقول لك هذا: لدي والدتي العجوز، وهذا جيد بالتأكيد، ولكن يجب ألا يشيخ المرء كثيراً. فقد وضعتها في مركز "سانت - آن" لرعاية العجزة لأنها أصبحت خرفة. ونحن، ماذا يخبئ المستقبل لنا؟ نحن عديمو القيمة. مع مثل هذا الولد، أراهن أنه لن يأتي لزيارتي إذا ما أصبحت مشلولاً. فهو يفضل أن يصرع رأسه بهذه الموسيقا الصاخبة بدلاً من أن يساعدني في ترتيب واجهة المحل. وفيما بعد، أستطيع أن أستغني عنه، لأن هذه هي الحياة. كلٌ لنفسه. ولا أي شفقة. وطق، طلقة في رأس كينيدي! وأنا لدي عينان لأبكي، إن لم أصبح ضريراً من الآن فصاعداً.

- أوه، قال "هوغو"، يمكنك أن تجد مصدر رزقك طالما أنك تصنع مثل هذه القبعات الجميلة.

- ماذا تظن! هتف صانع القبّعات (وكان يدعى "كريبون" أو "كريبو"). إن القبّعات لم تعد تطعم صاحبها. آه، لو أنني أبيع الخوذ، ربما... ولكن القبّعات قد انتهى وقتها. أما بالنسبة للنساء، فهن يضعن خماراً عندما يذهبن للصلاة، هذا إذا ذهبن! وحتى الخوارنة ما عادوا يلبسون قلنسوات على الرأس. كيف تريدني أن أجد مصدر رزقي إذن ما بين أمي وزوجتي وابني الموسيقي، نعم، هذا ما كنت أقوله، إن نظري يشح بحيث أنني أظن الليل مخيماً في وضح النهار. ومما لا شك فيه أن ابني يناديني الغروب لهذا السبب. الغروب! كلمة مزعجة، أليس كذلك؟ أترى كيف أصبح الشباب! ولماذا لا يدعونني الظلام طالما أنه يعيش فيه.

- بالطبع، قال "هوغو" في حين أنه لم ينتبه إلا لنصف حديث السيد "كريبو".

بدا له أن باريس لم تعد سوى ثرثرة، وأن فقاعات الكلام تصدر من كل بيت باستمرار. كان هذا السيل ينسكب على الطرقات، ويكبر فيصبح ساقية ثم نهراً يجتاح من وقت لآخر الأحياء الغارقة في سيل من الكلام القذر المناسب لبالوعات المجاري. أما "هوغو" (أما زال يقف أمام دكان صانع القبّعات؟)، فكان يسمع في البعيد غناء "الموشيشاناريين، وكان هذا الغناء الذي يتم على إيقاع تصفيق الأيدي وتوافقات الجيتار يقترب، يقترب تماماً، ويغطي هذر المتكلمين شيئاً فشيئاً. كان يسمع أصوات الراقصين المرتجفة وغناء الملكة الفرعونية. اشتعلت نار كبيرة. هبت الريح فامتد اللهب إلى مباني الكلمات (هذه البيوت المؤقتة) فاشتعلت. هذا هو الحريق مقابل الفيضان!

- ليس هذا ما أريد، قال ناظراً إلى اليمين وإلى اليسار بقلق شديد.

لا يستطيع "كريبو" أن يفهم، فهو غارق في مشكلاته المنزلية. يعيش في دكانه مثلما يعيش الحلزون في قوقعته، جاهلاً أنها قلعة فارغة، ولكن لا يهم! فهو يحشو هذا الفراغ بعبارات هي بالنسبة إليه مثل القبعات التنكرية التي يستخدمها كي يحتمي خلفها. ممَّ يحتمي؟ هذا ما لا يعلمه وما لا يريد أن يعلمه. إنه خائف جداً! هذا ما فكر فيه "هوغو" بينما كان الرجل يدخل إلى دكانه رافعاً يديه إلى السماء، وربما آملاً منها أن تقطع هذا الصخب المريع والناجم عن عزف ابنه النشاز.



كان "هوغو" يعلم أنه سيجد "جرابار" في مطعم "لوكليرون". كان يجهل سبب رغبته في لقائه، لكنه كان يشعر أنه بحاجة ماسة إليه، ربما لأنه استطاع بواسطته أن يستمتع بتلك الرؤية العابرة لملك الأيائل زعيم "الموشيشاناريين". ولذلك فقد شعر بخيبة أمل كبيرة عندما أخبرته النادلة "جانين" بأن هذا الرجل لم يظهر منذ ذلك المساء الشهير الذي تحدثا به. أهو مريض؟

ذهب "هوغو" إلى محل الفحم حيث يعمل "جرابار". كان هذا المحل عبارة عن "كراج" خرب في نهاية طريق مسدودة قذرة. أخبره صاحب المحل، المدعو "مافلو"، غاضباً أن عامله لم يأت منذ تلك الليلة وأعطاه عنوانه. كان "جرابار" قد كلمه عن شقة تركتها زوجته له قبل أن تسافر إلى إيطاليا. كذبة لطيفة! ففي الطابق الخامس ١٣، شارع "بيلو"، وفي غرفة كانت سابقاً غرفة خادمة، استقبل "جرابار" زائره بصوت أجش قادم من العالم الآخر، وهو يستلقي على فراشه القشي القذر.

- آه، المحاسب... ها أنت ذا هنا، نادني "ألفونس"، أليس كذلك؟

جلس "هوغو" على كرسي عرجاء متسائلاً في نفسه عن هذا الذي جاء ليزوره في هذا المكان.

- ألفونس، اعذرني لأنني أتيت.

- لا، لا، فهذا جيد. لم أكن أود أن أسافر وحيداً.

- تسافر؟

ابتسم "جرابار" ابتسامة باهتة.

- إن سفينة "ماري - جان"...

- أتعرف سفينة "ماري - جان"؟

- والسيدة "بيرت" أيضاً. منذ مدة طويلة. ثم رحلت.

- أعلم، ولكن كيف تعلم أنت؟

بصوته الخافت انحنى "هوغو" عليه كما لو كان ينحني على ميت كي يسمع منه اعترافاً، اعترافاً متقطعاً بسبب الآهات والحشرجات، اعترافاً صادراً من الأعماق.

- السيدة! كان عمري عشر سنوات. كنت أتسكع في الشوارع. استقبلتني لديها. لم يحصل لي قبل ذلك أن دخلت شقة مثل شقتها! سجاد، لوحات، أضواء وتماثيل هنا وهناك، كما لو أنني دخلت متحفاً.

- وحضّرت لك بعض الطعام وشوكولا بالحليب. وبعد ذلك... بعد ذلك...

- وبعد ذلك سفينة "ماري - جان". لا أعرف بالضبط كيف حصل ذلك. كانت السيدة "بيرت" تتكلم ولا تتوقف عن الكلام (هناك كلمة وكلمة، أليس كذلك) وكنا نجدف في المحيط باتجاه جزر تحت الريح. كان هناك قبطان عجوز، وكنز، وقراصنة. كان الأستاذ ميسمر يلقي على جسر السفينة قصائد يمجد فيها تلك التي

يحبها والتي فقدها ، وهي تدعى "ألسين". وكان يبكي. كان ذلك مدهشاً. أتذكره جيداً. وذات صباح انتهى كل شيء. أغلق المنزل الجميل. وطارت السيدة. ربما أنني كنت أحلم فحسب.

كان "جرابار"، هو أيضاً، قد التقى بالساحرة سابقاً، في زمن آخر، في زمن الطفولة، زمن "آميلي". كان "هوغو" يعلم أنه يستطيع، بواسطة قلمه ودفاتره الصغيرة، أن يستعيد هذه الحالة العذبة عندما يريد. كان بإمكانه أن يستحضر السيدة "بيرت" على هواه، ثم تقوده هذه الساحرة على متن سفينة "ماري - جان" التي تبحر باستمرار. هي ذي الحقيقة: إن كلمة السيدة "بيرت"، على النقيض من كلام الآخرين، كانت فعلاً مجسَّداً.

أما "جرابار" فلم يكن سوى "ألفونس". إنه يجهل قوة الكتابة. كان الوقت قد أصبح متأخراً جداً عليه كي يتعلم سرها المريب. سوف لن يعرف أبداً أعمال "رالف آبيرمومبري"، ولا قصة السيدة البدينة ذات القبقاب، ولا نافذة "آجيوس"... ومع ذلك، كان له شرف التعرف بالسيدة "بيرت"، وشرف الإبحار في سفينة "ماري - جان". أهناك ممرات أخرى غير الكتابة تؤهله للدخول في العالم الآخر؟

- في الواقع، تابع "جرابار" كلامه، إن زوجتي لم تكن عاهرة. قلت ذلك لأنني أريد الحط من قدرها. كانت كبيرة جداً، ضخمة جداً، ولا نظير لها. هيه! هيه! حتى أنها كانت شخصية مميزة جداً. كان لديها كلب صغير اسمه "ألفريد". كانت تعطره بماء الورد، الذي كانت تشتريه بالصفائح من الخياط "ألكسندروف". إنها مثل أمي... دوقة حقيقية من الزمن الغابر. ولكن أنا، من كنت أنا مقابل

مثل هاتين الشخصيتين؟ كنت يرقة، أو خنفساء مقلوبة على ظهرها. وكنت كسولاً في المدرسة. وليس من المدهش أن يفترسني السرطان أخيراً! آه، ليت السيدة "بيرت" قد بقيت! أما بالنسبة لصور فتيات الرزنامات فهي ما تزال معلقة في رأسي بالدبابيس!

لقد أنهك هذا المونولوج المجنون ذلك الرجل التعيس. من هو بالضبط؟ أهو راوٍ يحاول أن يرسّخ قليلاً من الحقيقة قبل أن يغادر العالم؟

- وداعاً يا سيد "هوغو"، قال "جرابار" زافراً. قد نلتقي في مطعم "لوكليرون". لأنه لا بد من وجود مطعم "لوكليرون" في كل مكان، أليس كذلك؟

- بالتأكيد يا سيد "جرابار".

- نادني "ألفونس".

- نعم، سوف نلتقي يا "ألفونس".

- وسنذهب معاً على متن سفينة "ماري - جان"...

- أعدك بذلك.

- آه، قال الرجل زافراً أيضاً، لا تنسَ: إن اسم "جانين" الحقيقي هو "أولمبيا".

شد "جرابار" يده على يد "هوغو"، بيد أنه كان يفصل ما بينهما زمنٌ غيرُ قابلٍ للقياس.

١٩

كان "جرابار" قد اجتاز باب "آجيوس"، والتحق بالسيدة "بيرت" و "الموشيشاناريين" وربما "راستابان". أما "آميلي"، فكانت تذهب وتعود متى تشاء، مجتازةً حدود المجهول بفستانها الصغير البسيط وضحكتها الملائكية ورشاقتها الشبيهة برشاقة عصفور دوري.

- ما رأيك في أن نذهب إلى السينما؟ اقترحت عليه.

لم يكن "هوغو" قد ذهب إلى السينما منذ أن حضر فيلم "*جلاديز إمبراطورة الهند*". دخلا في أول صالة صادفاها. كان اسمها "لوبوزو". كانوا يعرضون في المدة الأولى فيلم "*ستالين والد الشعوب الحنون*".

- آه، هتفت "آميلي". أعرف هذا الرجل. إنه زعيم قبيلة "اليوسوم"! كان يسكن في زاوية من زوايا القمر ويرسل لنا أشعة سيئة سببت الطاعون والكَلَب وداء النقطة. حاول إخوتي اغتياله ذات يوم. وللأسف أنه كان يعرف كيف يجعل نفسه غير مرئيٍ من قمة قلعته المغطاة بالضباب. فلم يستطيعوا أن يدركوه أبداً.

على الشاشة، رأى "هوغو" قالب الكعك الضخم الخاص بالكرملين ينتصب أمام عينيه، وبينما كان الفيلم مستمراً، دخل من باب القياصرة. لا لم يعد جالساً على المقعد المخملي القرمزي في صالة

السينما، بل ها هُوَ ذا يتقدم فيحييه الحرس الموسكوفي. وقد رافقوه، عبر ممرات طويلة ذهبية، حتى الغرفة الخاصة بالقائد الأعلى الذي كان ينهي تنظيف أسنانه بالفرشاة، وهو يرتدي قبقاباً وقميصاً ليلياً.

- ادخل يا رفيق! أنا فخور بك! على جبهة الجيش سوف نقلدك وسام "ستالينجراد" ونجمة "زولما"! عبثاً تشكرني ذلك أن الشعب هو الذي يحييك بواسطتي. كم أيِّلاً ذبحتَ منذ الصباح؟

راح يمسد شاربيه بعناية فخوراً بنفسه، ثم قال:

- كما ترى يا رفيق، ينبغي عليَّ أن أبقى بسيطاً. لم أكن سوى فلاحٍ سيِّئ التربية. هذا لا يهم! وقد وصلت إلى قمة السلطة لأنني أتقنت فن خفق البيض أكثر من الجميع! انظر! في هذه الساعة، أستطيع أن أكبس على زر صغير بإصبع واحد فأكسر عشرة آلاف بيضة بالدقيقة. عشرة آلاف، أترى؟ أما بالنسبة للآخرين، الديوك، والدجاجات القميئة، والديوك الرومية، والدواجن المتمردة الأخرى، فأنا أرسلها إلى سيبيريا. ذلك أن بيضها غير مطابق للمواصفات! وفي الوحل والثلج، يستطيع هؤلاء الخونة أن يحكوا جلودهم حتى يخرج الدم منه!

يا له من رعب كبير! وقد شعر به "هوغو" تماماً. قد يكون هذا الرجل الذي يستقبله "ستالين" فعلاً، لكنه "كراكن" الشرير بكل تأكيد!

- "آميلي"، لنخرج من هنا!

في الشارع عاد الزمن إلى طبيعته. القرار: عدم الذهاب إلى السينما مرة أخرى. صور على صور! إن الصالات المظلمة هي هوىً

سحيقة للسهاد. تجتمع فيها كل الشياطين اللزجة. إن النفي يعمل ها هنا أكثر مما يعمل في أي مكان آخر، وهو أبعد ما يكون عن الفجر المأمول. كل شيء يمكن أن يفتح، لكن الفتحة مغلقة. السؤال: في أي حكاية وقعنا؟ أيجب أن نغوص فيها أيضاً؟ إن الكلمة هي بحد ذاتها هوة سحيقة. بها تسقط المدينة بالمقلوب في ثرثرة لا تنتهي. ومع ذلك هنالك ظمأ شديد للصمت. ظمأ شديد بكل بساطة. جملة "آبيركومبري" : "أحد ما عبَّر عنا فيما لا يمكن سبره".

- ماذا تقول؟ سألت "آميلي".

- لقد زلت قدمي في الكتابة. تشكلت عبارات غريبة، وتجمعت خارج تفكيري. كنت أتحرك في حفرة فارغة. ولكن أنت، أنت هنا، أليس كذلك؟

لم تفهم الفتاة الشابة تحفظات صديقها. عندما رأت نفسها غارقة في العدم، خطت من فوق الدرابزين، وقفزت من فوق الجسر. كانت زرقة السماء واسعة وعميقة جداً.

- في نهاية سقوطك أو طيرانك، سوف تسقطين بداخلي، قال "هوغو" مؤكّداً.

غاصت فيه. منذ مدة طويلة، و "الموشيشاناريون" يجوبون الصحاري ويصعدون الجبال ويركبون المحيطات، ولا أفق لهم إلا السفر! أصبح التعب ملاذهم. ثم فجأةً يسهرون ويرقصون. أوه، ما أجمل رقصهم! إنهم هم من يجعلون كوكبنا يدور.

- نحن قبائل المنفى كما ترى. ويدعوننا أيضاً "الإوز البري".

كان "هوغو" يصغي ويتذكر. هو أيضاً كان في السابق من تلك المجموعات الفريدة السامية الموسومة بالحديد. هو أيضاً كان يعدو على الخيول العربية ويطلق السهم باتجاه الشمس. وهو أيضاً، عند التوقف، كان يشرب نبيذ النخيل وينشد نشيد الرحيل الأبدي.

في ذلك الوقت، كان اسمه "راستابان". كانت السيدة "بيريت" تحرك ألبوم الجنيات كي تهدهده. كانت تدعوه: "يا حملي الوديع ويا دميتي الجميلة". وأحياناً كانت تطلي أظافر قدميه بالطلاء البنفسجي. وكانت تسرح شعره بالسيشوار طويلاً. وبواسطة مرشّة كانت تمسح وجهه ببودرة الأرز التي تفوح برائحة العفن. كانت الأريكة تحيد عن الطريق نحو محيطات مجهولة. ولكن، من ذا الذي يحلم بمن؟



استيقظ "هوغو". استقبلته غرفته. نعم، إنه على ما يرام هنا.

لم يرن المنبه. سيتأخر على "برونتان". "برونتان"؟ لم يعد هناك "برونتان". سوف لن يعود أبداً إلى كهف ذباح الطيور، ذلك أنه مطرود. سوف لن يقوم بعمله مرة أخرى، وهذا أفضل. فبماذا يشترك مع أولئك الناس؟

نهض مندهشاً. "اميلي" غائبة. فقد ظلت في الحلم أسيرة النوم. إن لم تكن قد انسابت بين صفحتين من قصته. أحياناً كان "هوغو" يتفاجأ من أنه قد كتب صفحاتٍ في الليل على دفاتر حلمه، وفي الصباح لا يبقى أي شيء منها، أو تبقى أحياناً آثار غائمة سرعان ما تتبدد كالدخان.

ارتدى ثيابه متسائلاً لماذا لم يعد إلى سريره، طالما أن لا أحد ينتظره ولا في أي مكان. حتى أن رواد مقهى "ديزار" قد خانوه. أكان لأحاديثهم أي معنى؟ أما إذا بحث عن عمل جديد، فإن ذلك سيكون مضحكاً! لا، إن "هوغو" يعلم ذلك، يعلم أن ذلك مكتوب على قدره - إذا كان بإمكاننا أن نسمي مثل هذه الحياة قدراً! لقد سماها "آبيركومبري" "جوهر الجحود الغامض". سوف يحتاج إلى النقود، ولن يستطيع دفع إيجار غرفته، ولا التردد على مطعم "لوكليرون". وبالمقابل، نعم، لقد عزم على ذلك، سوف يشرع بالمهمة التي ولد من أجلها، ألا وهي القطع مع جرائم البارون "ميدي"، و "جوستاف كراكن" الشرير، ذابح الطيور البريئة، الذي يحتفظ، بين مجموعات الموت، بجسد

"آميلي" الرقيقة! لأن "هوغو" متأكد حالياً من أن "آميلي" حين غادرته ليلة البارحة، عادت إلى التابوت الزجاجي الذي ترقد فيه الآن.

يُطرق الباب. هل هذه هي السيدة "ميرلان" مع بسكويتها وحلواها وتلفازها الذي يعرض مشاهد ما هي إلا أنقاض واقع مختلق؟

فتح الباب فدخلت مجموعة من سادة ملتحين بنوع من الاحتفالية. كانوا شاحبي الوجه، يلبسون دثاراً فضفاضاً، ويضع زعيمهم على رأسه قبعة ضبابية.

- السيد "هوغو فريز"؟

منذ مدة طويلة لم يناده أحد بهذا الاسم مما حمله على الابتسام. يبدو أن هذا الاسم هو اسم أبيه. لم يكن متأكداً منه، غير أنه لا أهمية لذلك!

تكلم الرجل الأطول والأكثر نحافةً وصلابةً من بينهم ليشرح له سبب قدومهم إليه، لكن لغته كانت عويصة كما لو أنه يتكلم العبرية أو الصينية. كانت الكلمات تدور في الغرفة بلا معنى، وتهرب من النافذة مثل فراشات شهر أيار/مايو.

- السؤال يا سيدي، السؤال الأول: هل ولدت في ١١ حزيران/يونيو ١٩٥٣ الساعة ٩,٢٧؟ أو في ٧ نيسان/إبريل ١٩٥٥ الساعة ٢٢,٠٨؟ أو في ٢٠ شباط/فبراير ١٩٥٦ الساعة ١٧,٢٢؟ لا نريد أن نخطئ. وأيضاً بشأن موعد وفاتك، أهو في ٦ حزيران/يونيو ١٩٩٨ الساعة ٦,٠٧؟ أم ٢٣ كانون الأول/ديسمبر، ليلة عيد الميلاد، ١٩٩٩ الساعة ١٢,٣٠ ليلاً؟ آه، آه، أرى أن هذا السؤال يربكك كما يقال اليوم. ولكن لا تقلق. ابقَ هادئاً. فالأمور أبسط مما تعتقد.

- أي أمور؟ سأل "هوغو"، الذي راح ينزعج من هذا الهذر.

- حسناً، الحياة، الموت، الظل، النور، الموسيقا، أمواج البحر، الألعاب النارية، التاريخ الروماني... وأستطيع أن أزيد بالطبع. هناك كلمات لكل شيء، ولكنها ليست كافية حتى الآن.

هز الرجال الآخرون رؤوسهم بنوع من الأسف.

- السؤال الثاني: هل أبحرت على متن سفينة "ماري - جان"، نعم أم لا؟ انتبه جيداً لجوابك يا سيدي، لأنه قد يتم تعديل تتمة حديثنا بناء على ذلك. ومن جهة أخرى، فما "ماري - جان"، أسألك؟ وفي أي محيط يمكن لمثل هذه السفينة أن تبحر؟ صلف! ضميرا هوس! هذر سكران! لقد قيل عبثاً أن المهرج الفاحش لم يعد يسليٌّ!

هز الرجال الآخرون رؤوسهم أيضاً.

- السؤال الثالث! السؤال الجوهري! ماذا كان يحصل بالفعل في شقة السيدة "بيرت"؟ نعم، ماذا كان يحصل حقاً؟ لأن هذا المخدع لم يعد مسكوناً منذ أن سافرت صاحبته المحترمة إلى الكاريبي قبل عشرين عاماً. ذلك أن أشخاصاً سليمي العقل بل أذكياء يرون بصيص ضوء يهتز خلف النوافذ في الليل. سرٌ غامضٌ تجهله، أليس كذلك؟ آه، يا سيدي العزيز، لا يمكنك أن تجعلنا نصدق ذلك! كما لو أن هيكلاً عظمياً من دون رأس يتنزه في عربة من نار! نحن بحاجة للنظام كما ترى.

- أيها السادة، قال "هوغو" مقلداً طريقتهم القديمة والغريبة في الحديث، أنا أجهل من أي منطقة مني أو من مكان آخر أنتم، ولكن اسمحوا لي بأن أعتقد أنني استيقظت منزعجاً!

- ممتاز! هتف الفزاعة الذي يرتدي ثياب العيد، وضحك بحيث قلب رأسه إلى الوراء.

قلّده الأخرون جميعاً، فانفجروا ضاحكين ضحكاً قابلاً للسيطرة، ذلك أنهم قد توقفوا فجأة كما لو كانوا قد توقفوا عند

إشارة ضوئية، إذ عثر كل واحد من هؤلاء الأشخاص الفريدين على الوجه الأصفر الجامد لهذا الموظف النموذجي المكلف بتنظيم المواكب الجنائزية العامة.

- في الواقع، استأنف الرجل النحيل كلامه، نحن مدينون لك لأنك أجبت على أسئلتنا بصراحة تامة. ونحن نشتبه بأنك تنتمي إلى ....! جمعية غامضة، هلامية نوعاً ما، أو أنك تنتمي - إن تجرأت أن أضيف - إلى طائفة من الزواحف مثل تلك التي تحبو في النقل العام، ولا سيّما في ممرات المترو تحت الأرض، أو في قبو الكنائس، أو في باحة المدراس أثناء الفرص. ولكن تعاونك الواضح يغفر لك بالكامل. كن واثقاً من ذلك. سوف نوقع لك إخلاء طرف.

- سأكون ممتناً لكم، قال "هوغو" وهو يرافقهم إلى الباب. ولكن ماذا أفدت من زيارتكم الكريمة؟

- التحقيق، يا سيدي العزيز المتميز، التحقيق! نحن نفتش. ولم ننقطع عن التفتيش منذ بداية العالم. نعتقد أننا عثرنا على ما نبحث عنه، ثم لا نجد شيئاً، فنستأنف التفتيش من جديد. إن مهمتنا مضنية، ولكن، ماذا تريد؟ لا بد من أن يكرس أناس ساذجون مثلنا أنفسهم لمثل هذه الغاية! هذا هو السر الكبير يا سيدي! السر الكبير!

قال هؤلاء السادة هذه العبارات المتسمة بالهيبة، وانحنوا معاً، رافعين قبعاتهم كالعادة، وذهبوا مع بقية من كرامة واضحة.

- آه، أي شرف عظيم! هتفت السيدة "ميرلان" لاحقاً. لقد رأيت كل شيء من فتحة الباب. بعثة من الحكومة في عمارتنا، عندك! يا سيدي العزيز "هوغو"، لا تقل لي شيئاً، فقد فهمت كل شيء. كان ذلك بسبب موت كينيدي، أليس كذلك؟

٢١

فجأة استوقف الصيدلاني "فوشو" صديقه "هوغو" بينما كان يذهب إلى بقالة شارع "بالسات" ليشتري علبة من يخنة الفاصولياء. كان الذعر يسيطر عليه.

- آه، يا عزيزي "هوغو"، لا بد من أن أخبرك... إن النائمين لا يستيقظون أبداً. إنهم يقفزون من حلم لآخر معتقدين أنهم يرون الحقيقة، بيد أن ذلك حلمٌ وحلمٌ أيضاً، أحلام مدمجة بعضها في بعض، سلسلة مخيفة من الدمى المتداخلة التي لا يستطيع أي شخص، ولا أي شخص، أن يعرف نهايتها. كل شيء وهم وخراب وخداع. إن الكون مزيف. زد على ذلك أنها لم تعد تمطر كما ترى.

حاول "هوغو" أن يدخل إلى الدكان، فأمسك "فوشو" به من زر صدرته.

- لا بد من مخلصٍ ما، من "أورفيه" ما، أو إنسان مثله. أتفهم ما أريد أن أقول... في زمن السيدة "بيرت" لم نكن لنتساءل أي سؤال. كنا موجودين داخل السؤال، وكان هذا هو الجواب! كانت نغمة ناي بسيطة تكفي لأن ترمي الجرذان جميعها في البحر، بيد أنه لم يعد هنالك من ناي صالح، إنما هنالك فقط

عـازفو نـاي يعتقـدون أنهـم ذهبيـون في حـين أنهـم عـازفون متكلفـون. ولكنـك أنـت يـا سـيدي العزيـز "هوغـو"، أنـت الخـارج مـن الوقاحـة الأصيلة لسيدة كبيرة، أنا على ثقة من أنـك تستطيع، بل عليك أن تعثـر علـى الـصورة، صـورة "يوتـا"، الـصورة الأصـلية الـتي كانـت موجـودة قبـل الـسينما الـتي تخـدعنا. أنـت المـسيح، أنـت المخلـص! صـدقني: أنـا صيدلاني من الدرجة الأولى ولـدي ثقافة، وقـد تمتعت بصورة خاصة بموهبة العين الثالثة في صالونات السيدة "بيربت". فأنـا لا أنظر إليك فحسب بل أراك. هنالك هالة مضيئة تحيط بجسدك الذي ارتفع لبضعة سنتيمترات فوق هـذا البلاط التعيس مـن دون أي جهـد أو انتبـاه. وبنـاء عليـه يـا سـيدي العزيـز الكـريم، مـاذا تنتظـر كـي تأخـذ الـدور البـارز الـذي ينتظـره عـصرك منـك؟ لمـاذا تماطـل طويلاً؟ اسمعني جيداً. يجـب أن نخلـص العـالم مـن منمقـي الكـلام، من المشعوذين، مـن صـنوف الباعـة الجـوالين جميعـاً، ومـن المـضللين المـاكرين الـذين يعيشون فـساداً هنـا وهنـاك. هـؤلاء هـم حيوانـات الشيطان الـذين يمـدحهم النقـد، هـؤلاء هـم باعـة البالونـات ومتملقـي اللا معنى. وبالتأكيد تستطيع أن تبـدأ مـن بـاريس، أو إذا أردت مـن دائرة، بل حارة أو جادة أو شارع، على الأقل من أجل أن تتمرن علـى ذلـك. ولكـن، لا تـنسَ أن تلـبس القفـازات بـصورة خاصـة! ذلـك أن البخار الذي ينبجس من العدم شديد الحموضة.

لم يكـن "هوغـو" يفهـم أي شـيء مـن هـذا التخريـف الـذي كـان يستقبل معه قطرات من بصاق محدِّثه.

أيكون الصيدلاني سكراناً؟ غير أنه يبدو في حالته الطبيعية. ولكن كيف تكون الحالة الطبيعية؟

- سيد "فوشو"، أشكرك على اهتمامك. الحقيقة أنني خرجت لبضع لحظات فقط. ذلك أن أموراً مستعجلة تناديني في داخلي. (لماذا قال: "في داخلي")؟ إن الوقت محسوب عليَّ لدرجة أنني لا أستطيع أن أبقى أكثر من ذلك بصحبتك الممتعة. صدِّقني أنني شديد الأسف لذلك.

لم يستطع "فوشو" أن يتفهمه فاستشاط غضباً وراح يضرب الأرض بقدميه مثل طفل مفسَد.

- ألا تفهمني حقاً؟ إن زبائن مقهى "ديزار" أقزام خرجوا من قمقم الفورمول. لا ينفكون يتغوطون كلاماً ميتاً. ما كان مثل هؤلاء الحشرات ليجرؤوا على أن يتكلموا في زمن السيدة "بيرت". ذلك أن نظرة واحدة من هذه السيدة كانت كافية لأن تسكتهم إلى الأبد.

- والبارون "ميدي"؟ سأله "هوغو". هل تعرفه؟

- من ذا الذي لا يعرف ذلك الأدرد[1] المتعالي؟ رأس من العظم! جثة زنخة! يجعل الخادم يلوك له اللحم. أواه أيها الشاب، نحن آلهة تمَّ اجتثاثنا من فضائنا! منذ أن رحلت عنا المضيفة الكبيرة، ونحن نسكن في خراب الكلام. وقد حمله الهاذرون إلى مسابقة السهاد. بيد أنني سأقول لك ما أعتقد: ينبغي عليك أن تجهز قارباً عندما يعلو

١ـ الأدرد: هو الذي لا أسنان له.

مستوى الماء. إذن توكل! ألا تسمع المد الذي يهمهم عند أقدام فندق المدينة؟

كان "هوغو" يسمع منذ مدة طويلة خرير الفيضان القادم، ولم يكن ذلك عند أقدام فندق المدينة فقط.



كان يتضح أكثر فأكثر أن "راستابان" حين اضطلع بدور كينيدي، قد قُتِل على يد عملاء البارون "ميدي" المشهور بـ "جوستاف كراكن". وكانت "آميلي" على صواب حين اكتشفت أن الأخوين "مورايا" قد اشتركا، هما أيضاً، في المؤامرة. وهكذا أصبح كل شيء واضحاً. كان مقهى "ديزار" مركز بؤرة التمرد الكوني حيث تحاك الدسائس. أما بالنسبة إلى "برونتان" الماكر، فمما لا شك فيه أنه ينتمي للعصابة نفسها.

في مثل هذه الشروط، لم يبقَ لي سوى المواجهة والتمرد ومصارعة الوحش، أو الهرب قافزاً ملتصق القدمين بين صفحات كتاب "آبيركومبري" كي أعثر على السيدة "بيربت" والأستاذ "ميسمر"، وكي أبحر في عرض البحر على متن سفينة "ماري - جان"! ولكن في هذه الفرضية الثانية، ألا يعني ذلك التخلي بنذالة عن "آميلي" وتركها بين أيدي البارون "ميدي"؟ أتبقى هذه المسكينة الساحرة حبيسة التابوت الذي سجنها فيه "جوستاف كراكن" إلى الأبد؟

ما زالت هناك علبة فاصولياء على الرف. كان "هوغو" ذاهباً ليتناول منها عندما سمع جلبة خفيفة وراءه. كان أحد

ما يقف في الظل بين الطاولة وفرن الغاز. أكان هذا هو "ألفونس جرابار"؟ للوهلة الأولى بدا له أنه هو، ولكن بعد زوال تأثير المفاجأة، أدرك "هوغو" أن القادم لم يكن سوى "راستابان" - "راستابان" متخذاً شكل "جرابار" كي لا يثير الفزع فيه من دون شك. هذا هو على طريقته قادر على أن يتحول إلى أي شخصية حسب مزاجه وحاجاته.

- من أين خرجتَ؟

- من مقبرة "آرلنتون" بالطبع. لم يكن الحجر ثقيلاً جداً، فقد استطعت أن أرفعه. ومن جهة أخرى لم أكن ميتاً تماماً. إن جلدي سميك مثل جلد فيل برونزي وحركتي رشيقة مثل حركة قرد "بورنيو". لقد لامست إحدى الطلقات رقبتي. أما الأخرى فقد تفاديتها بحركة ملائمة من خصري. هوب! هوب! لم ير الجراحون إلا النار.

- هل عدت إلى السيدة "بيرت"؟

- أحب أن أمر عليها من وقت لآخر، أن أبقى على الأريكة وأقرأ ألبوماً من الزمن الغابر، وأقوم بجولة على متن سفينة "ماري - جان". ألا تعتقد أن حبيبتك "أميلي" تحب جزر "تونجا" كثيراً؟

توجب على "هوغو" أن يعترف أن صديقته قد عادت إلى قصر البارون "ميدي".

- أوه، أجاب "راستابان"، لم يكن ذلك برغبتها! إن البارون ليس سوى الصياد "هيرن"، العدّاء الكبير في الغابات المرعبة! جاثماً على حصانه الهزيل، يعدو طوال الليل متبوعاً بمجموعة من الكلاب

النابحة، وحقيبته ملأى بالأرواح التي حصدها أثناء اجتيازه لغياهب الظلمات.

- أريد أن أحرر "آميلي" من سطوته!

- حسناً تفعل، ولكن، كيف يمكنك أن تواجه مثل هذه القوة المخيفة؟ إذ يمكن لأضعف كلابه أن يمزق جسدك في لحظة واحدة.

- أليس هنالك من طريقة أخرى؟ سأل "هوغو" يائساً.

- ربما... قال "راستابان". وبالانتظار، أعطني قليلاً من هذه الفاصولياء، فإني أموت جوعاً.

أتجوع الأشباح؟

- في الواقع استأنف "راستابان" حديثه بعد أن شبع، لا يوجد سوى طريقة دقيقة للتخلص من هذا الوحش المخيف. إن مهاجمته وجهاً لوجه تعني التعرض للموت الأكيد. من المناسب إذن اقتياده إلى كمين ينصب له. ماذا يلزمنا لنصب فخ لمثل هذا اللص القوي؟ فريسة فريدة! طريدة تفتقر مجموعته إليها، ويحلم بتحنيطها لدى "برونتان" المشؤوم!

- ولكن من إذن؟ سأل "هوغو" مفتوناً بعزيمة صديقه.

تحوَّل "راستابان" فجأة من "جرابار" إلى شكل "شيرلوك هولمز" بمعطفه وقبعته الإيرلندية وغليونه الطويل المعقوف.

- عزيزي "واطسون"، أولاً، يجب أن أطلعك على سر. فعلى النقيض مما أشيع عبر العالم، لم يمت والد الشعوب الحنون في الكرملين عام ١٩٥٣. فليس هو من يرقد في ضريح الساحة الحمراء بجوار الرفيق لينين! إن من يرقد هناك هو رجل يدعى

"إيفان إيفانوف بيرجاتشيف"، وهو رقيب في المخابرات السوفيتية يشبه ستالين لدرجة كبيرة! في حين أن الماريشال قد تقاعد منذ فترة طويلة، وهو الآن يتداوى من الروماتيزم في دار للعجزة في "أوديسا"، ويمارس هوايته الأساسية في عرض مسرحيات من إبداعه يقوم نزلاء الدار بتمثيلها. ومما لا شك فيه أن هذه الهواية كانت ستشغله حتى يناديه الموت الحقيقي لدى حصول حادث مفاجئ. وحين أراد أن يذهب إلى الكافتريا، أخطأ في اختيار الممر، وفتح الباب الأيمن بدلاً من الباب الأيسر، فوجد نفسه هنا في باريس في أقبية الأوبرا. وهنا تستطيع أن تحكم على حيوية هذا الرجل: فبدلاً من أن يشعر أنه في غير بلده، سرق دراجة نارية وذهب مباشرة إلى مطعم "لوكليرون"، ومنذ ذلك التاريخ اعتبر نفسه أنه "سيد الغطس الكبير" و "ماريشال حشرات المطابخ". وهو يحتفظ بمجموعة كثيرة من الصور في علبة من الكرتون عليها شعار "فودكا سميرنوف".

كان "هوغو" قد قرأ هذه القصة سابقاً في رواية "آبيركومبري"، وجاء تأكيد "راستابان" ليزيد من صحتها. وهكذا فإن الشيخ الذي يجلس القرفصاء في مؤخرة مطبخ مطعم "لوكليرون" ما هو إلا ستالين! وهذا الخبر يفسر أشياء كثيرة ولا سيّما تحفظ النادلة "جانين". أيكون "جرابار" قد اطلع على ذلك؟

- إن الناس جميعاً يعرفون ذلك، ولكن لا يجرؤ أحد على الإفصاح عنه خوفاً من أن يعتبر كاذباً أو مجنوناً. سيّان! إن "جوستاف

كراكن" سيدفع غالياً كي يحصل على هذه الفريسة ويضع جثتها المحنطة في صالة معرضه. إذ سيكون في هذه الحالة قد حصل على المومياء الأصلية! ولكن، إذا كانوا جميعاً يعرفون القصة، فأنا الوحيد الذي اكتشف المكان الذي يختبئ فيه "ستالين" العزيز. وفي الواقع يكفي أن نتذكر أن مطعم "لوكليرون" يقع بين شارع "كيروسكا براغ" وساحة "بلمونت برشلونة" كي ندرك مباشرة سبب اختيار هذا الرجل لهذا المكان الخفي كي يمضي فيه تقاعده النهائي.

لقد عرف "راستابان" على الدوام كيف يستخدم هذا "الذكاء الطيفي" الذي كان يوصي به "أوستراجون" في كتاب "هلتر - سكلتر". أما بالنسبة إلى "هوغو"، فكان يجد صعوبة في متابعة تحولات الشخصيات، لكنه كان يقبل النتائج بثقة كبيرة. أليست هذه غريزة الطفولة العجيبة؟

- أنت، قال "راستابان"، سوف تذهب إلى مطعم "لوكليرون"، وتسأل النادلة عن عادات هذا الشيخ الذي يقبع خلف المطبخ. مما لا شك فيه أنها تجهل هوية الرجل الحقيقية. لذا كن حكيماً. ولكن لا تنسَ أن الاسم الحقيقي لجانين هو "أولمبيا". وخلال هذا الوقت سأذهب أنا إلى البارون "ميدي" كي أصمم مخططي.

كانت هذه الجمل، كلمة فكلمة، هي الجمل نفسها التي نطق بها "أوستراجون" في كتاب "آبيركومبري". وهكذا وجد جسراً دقيقاً يربط الكتابة بالحياة. هناك تناغم في كل شيء.

فقد وجد "هوغو" نفسه هادئاً بدلاً من أن يجد نفسه مضطرباً. كيف لا يمكن للواقع أن يتطابق مع الحلم أو الوهم تماماً، طالما أنه، هو نفسه، يتحرك بين ظروف الحياة كما ينتقل بين صفحات قصة؟

أغلق الكتاب متأكداً من أن "راستابان" قد رحل، فما كان منه إلا أن غادر الغرفة بدوره.



كانت هذه هي المرة الأولى التي يأتي فيها "هوغو" أثناء النهار. وهكذا لم يستغرب حين وجد الأمكنة في حالة مختلفة عن الحالة التي يعرفها. والصحيح أن المطعم الصغير بواجهته المكشوطة قد اتخذ شكل فندق فخم من الدرجة الأولى. ومن الممكن أن يكون هذا التمويه الجديد قد تم لتمويه تخفّي الدكتاتور العجوز. غير أن "هوغو" عندما نظر عن كثب لاحظ أن هذا الفندق العظيم كان يحوي مِسَخَاً عديدة. وهكذا فإن العمودين المنتصبين أسفل الدرج الفخم ليسا سوى عملاقتين عاريتين منحوتتين من الصخر الكلسي الشفاف. كما أن السجاد الذي يغطي الممرات كان مصنوعاً من فراء ناصع البياض كأنه فرو حيوان القاقم. وأخيراً فإن البوابة الذهبية الراسخة التي تفتح على البهو الداخلي كانت تشع مثل مرآة ضربتها الشمس.

اعتقد "هوغو" أن حلم الليل يستمر في تصوير وصفٍ كان قد قرأه بلا ريب في رواية "آبيركومبري". فلم يقلق من ذلك. فبالنسبة إليه يعود هذا النوع من الوضوح إلى رتابة الأيام. كان يندس بسهولة في ممرات الواقع المليئة بغرف سرية خلف مظاهر الجدران كما يعلم الجميع. صاعداً ونازلاً درج الحلم برشاقة داخلية شبيهة برشاقة من

يمشي في نومه، لم يهتم بفك الخيوط التي شدّته بها "آريان" الرشيقة كي يتوجه في متاهة لياليه الأكثر نشوة والأكثر وضوحاً من نهاراته.

لم يكن "راستابان" يقوم بأي شيء بالإجمال سوى أن يتبع مجرى رواية اخترعها شخص آخر هو الكاتب الذي قدمه الأستاذ "ميسمر" إلى "هوغو" حين أعاره "هلتر - سكلتر". ومما لا شك فيه أن هذا الكتاب يتمتع بقوة سحرية لأن الشخصيات والأحداث تهرب من صفحاته وتنتشر في الحياة اليومية مثل الأقراص اليابانية التي تتحول وروداً عندما تلامس الماء.

وقد علم "هوغو" ذلك (ولكن كيف علمه؟) إذ عاد إلى مطعم "لوكليرون"، وسأل الخادمة "جانين"، مما مكّنه من أن يتقدم في مجرى قصة لا يعلم معناها بالضبط. ألم يكن الأمر الجوهري أن يحرر "آميلي" من شرور البارون "ميدي" وأن ينهي قوة قرينه المشؤوم "جوستاف كراكن" في الوقت نفسه؟ أكان "راستابان" بحاجة حقاً إلى ستالين العجوز كي ينهي مهمته؟ ولكن هل من الصحيح أن هذا الذي يختبئ في خلفية المطبخ هو والد الشعوب الحنون؟ ألم يختلق "آبيركومبري" هذه القصة بأسلوب الغرابة المتنقلة؟

عندما دخل "هوغو" إلى البهو، رأى مباشرة ديكور مطعم "لوكليرون" المألوف. إذ يقوم بالحراسة دوماً، ساكنيْن وحيديْن، كلٌ من تمثال الجبس والإعلان الذي يمجد مزايا المياه المعدنية الحارة. لم تكن الطاولات قد وضعت بعد، وكانت "جانين" المنهَكة تكنس بقايا سهرة البارحة.

- آه، سيدي المحاسب! هتفت بصوتها الحاد. ماذا جاء بك؟ عندما رأيتك ظننتك شبحاً خرج من المقبرة!

وضعت مكنستها جانباً، ثم اقتربت من القادم الجديد وهي تجر حذاءها على البلاط وتنشّف يديها بمئزرها.

- أصحيح أن "برونتان" قد أعفاك من عملك؟ عندما سمعت ذلك لم أصدّق! رجل نموذجي وجيد من النواحي جميعها مثلك! نقش حقيقي دارج! وهذا المسكين "ألفونس" الذي صوب السلاح إلى ميسرته! من المؤكد أن العالم لا يدور حتى لو أصبحت الخراف ثيراناً! ولكن قل لي يا سيدي المحاسب، هل من خدمة أسديها لك؟

- يا آنسة "جانين"، بدأ "هوغو" كلامه بحذر، إن صداقتك غالية جداً علي. وفي مثل لحظات الشدة هذه، يُعرف الأصدقاء الحقيقيون، أليس كذلك؟ ولكن القضية لا تكمن ها هنا...

- أي قضية؟ سألت الخادمة التي تورطت في الأمر فجأة.

- أريد أن أقول قضية العالم، كل هذه الأشياء...

- أوه، قالت "جانين" مبتسمة، أعلم أنك فيلسوف دائماً. كنت أستشف ذلك عندما كنت تتناول عشاءك وحيداً على طاولتك الصغيرة. وسواء أكنت تتناول سلطة الشمندر أم ضلع الخنزير، كان شكلك شكل إنسان يتناول طعامه لكنه ليس حاضراً فعلاً ها هنا.

- في الواقع أنني لم أكن وحيداً قط، اعترف "هوغو" بذلك، حتى عندما كنت تظنين أنني وحيد. كان معي دوماً صديق صدوق،

ثم عندما رحل فيما بعد، حلت محله فتاة شابة ساحرة. ربما أنك تعرفينها... فتاة تدعى "آميلي".

أضاء وجه الخادمة الشاحب.

- أنا لدي صديقة أيضاً، مثلك تماماً، تدعى "أولمبيا". أميرة حقيقية! وهي تنحدر مباشرة من سلالة "الميروفنجيين". ولكن يجب ألا تفصح عن ذلك لأحد. فالسر سر. أبوح لك به لأنك أخبرتني عن صديقتك "آميلي".

- "أولمبيا"... تذكر "هوغو". أليست بطلة رواية "آبيركومبري"...

- نعم بالطبع! أجابت المرأة الشابة بحماس. يبدو أنك تعرف الكتاب أيضاً! الكتاب! إن الأستاذ "ميسمر" هو الذي أشار علي به عندما كان يأتي ليتناول عشاءه هنا. آه، كان ذلك الكتاب كاتدرائية ثقافية حقيقية! ومنذ أن انغمست في قراءته، تغيرت حياتي بالكامل. وبالإضافة إلى ذلك، وطالما أننا في عالم الأسرار، فلا بد لي من أن أروي لك... إن السيد "ألفونس، هو أيضاً، قد قرأ الكتاب، حتى إنه انتهى بأن أصبح يجد نفسه داخله. ففيه اسمه "فريدريك دو كورنواي" وهكذا فقد التقيت به. أواه يا سيدي المحاسب، لو تعلم أننا... كل واحد منا قد عشق الآخر بجنون.

- أعلم، قال "هوغو" كاذباً لأنه لم يرغب في أن يدخل ميدان المجاملات. وبما أننا في مجال البوح بالأسرار، يا آنسة جانين...

- نادني "أولمبيا"!

- نعم، يا "أولمبيا"، كنت أريد أن أسألك... هذا الرجل العجوز، الذي يسكن في خلفية مطبخ المطعم...

لم تدعه الخادمة يكمل. بل تراجعت كما لو أنها استقبلت صفعة على وجهها.

- لا! أرجوك! من قال لك أن هناك إنساناً ما في هذا المكان؟ لا يوجد أحد! لا يوجد أحد حقاً!

- ولا حتى أي بلشفي؟ تجرأ على طرح هذا السؤال.

شرعت تقهقه من الضحك، ثم قالت:

- أرى أنك قد سمعتهم يتكلمون عن تلك القصة المضحكة. إنها طرفة، حماقة، سوء فهم!

تقدم "هوغو" نحوها وأخذ بيدها بحماس حار:

- أنت مدينة لي بقول الحقيقة يا "أولمبيا"! فنحن الاثنان في الكتاب، أليس كذلك؟

ابتعدت عنه بقوة، ترنحت على كرسي، هزت رأسها، وصرحت أنها لا تستطيع جلاء أي شيء. ذلك أن الأمر سر، وهي ليست المرأة المهذار التي تنشر ما أوكل إليها تحت القسم. لا، لا! ستطبق شفتيها إلى الأبد. فقد توعدوها إن باحت به بأنها ستصلى جهنم حيث تبقى إلى الأبد صامتة مثل القبر. ومع ذلك فقد سمح "هوغو" لنفسه بأن يلح عليها، ومما لا شك فيه أنه استخدم الإغواء كي يجعلها تتكلم بصعوبة، فانتهت أن اعترفت بالأمر.

- آه، ما كان ينبغي علي ذلك! ولكن كما تقول فنحن حبيسان في القصة نفسها، أليس كذلك؟ ألم تكتشف ذلك يا سيدي المحاسب؟ إن الرجل الذي يسكن ها هنا ما هو إلا مؤلف الكتاب!

إنه هو صاحب المطعم. إنه هو من يقوم بالطبخ. نعم، فهل أدركت. إن من ينام في الليل في القبو ليس سوى الروائي، الكاتب الشهير "رالف آبيركومبري"!

أكانت تسخر منه؟



"أولمبيا" فتاة طويلة سمراء ممتلئة لا تتشابه بشيء مع النادلة النحيلة ذات الشعر الأصفر التي يسميها زبائن "لوكليرون" "جانين". أدرك "هوغو" أن "جرابار" قد أحبها. كانت تتقدم في بهو الفندق بهيبة كبيرة. كان الخدم الذين يرتدون اللباس الرسمي ينحنون باحترام عندما تمر من أمامهم. وهي تدعى بالفيلم "جلاديز"، إمبراطورة الهند.

- بما أنك تجرأت على القدوم إلي يا عزيزي، سوف أعرّفك على شاعرنا. لأن هناك الكثيرين من مدعي الكتابة من جميع الألوان! ليس "آبيركومبري" ساحراً لغوياً فحسب بل عرَّافَ الحقيقة. أتفهم ما أقول؟

- ليس تماماً، اعترف "هوغو" الذي كان يجد صعوبة في متابعة المخلوقة الساحرة التي تمشي أمامه.

ارتدت فستان رقص عسلي اللون، ووضعت على رأسها تاجاً يتلألأ تحت ضوء فوانيس مدينة "البندقية".

- لقد ولدنا، كما تعرف، من دماغ هذا الرجل الأكبر من رجل، لأنه وحده خلق عدداً من الشخصيات أكثر من عدد الكائنات البشرية التي تعيش على الأرض. إن كل مكتبات العالم لا تكفي

لاحتواء أعماله. فهو "سوفوكليس" و "شكسبير"، و"دانتي" و "سرفانتس"، و"موليير" و "جوته"، و"بلزاك" و "بروست"، و"دوستويفسكي" و "توماس مان"، و"جويس" و "فوكنر". ولكن لا تنخدع! فإنه على درجة من التواضع بحيث يزعم أنه لا يستطيع أن يخط كلمة واحدة برأس قلمه الصغير. وهو يقول إن الشخصيات والأحداث تهرب منه لا إرادياً، فهي تذهب لتتجسد هنا وهناك على هواها.

وفي "البار"، هناك رجل ملتحٍ ضخم أبيض الشعر يرتدي سروالاً قصيراً وقميصاً مفتوحاً يشرب "جِنّاً مارتينياً" (محرَّكاً بالملعقة ومحلّىً بحبة زيتون) ويمزح مع النادل. إنه يشبه "هيمنجوي" المهجَّن بـ "أورسون ويلز"، ويدخن سيجاراً يعب منه بتلذذ ظاهر.

- آه، هتف متعجباً عندما رأى "أولمبيا" و "هوغو" قادميْن إليه. يا صديقيَّ الطبيبيْن تعالا! اقتربا! لا تخجلا! يا جيمي "كوكتيل" قوي لهذين الولدين! كنت أنتظركما.

لم يكن "هوغو" ليتصور الكاتب الكبير يتخذ هذا المظهر الخاص بسائح أمريكي سكران. ولكن أهذا هو حقاً؟ كان يتكلم على كل حال بصوت قوي ويقوم بحركات مسرحية بحيث يكاد كأس "الكوكتيل" أن ينقلب بين يديه.

- إن الخيال هو اختلاق جميل حسن. ولا أدري إن كان ينجم عن شيطان أو إله، وهذا لا يهمني! والصحيح أنه ينبجس منا مثل نبع الصخر الذي شقه موسى بعصاه.

وانفجر ضاحكاً بقهقهة كبيرة هزت الأقداح من خلف "البار".

- السيد "تيست" محقّراً "جيرترود"، أو "هاملت" يلعب "البوكر" مع الأمير "ميتشكين"... لِمَ لا؟ في هذا البحر الذي ندعوه "الأدب"، تنتهي جميع الأسماك بالتزاوج. وأنتما يا صديقيَّ، أنتما في هذه الدوامة الأبدية مثل سمكتين في المقلى يحركهما الخيال البشري بلا مبالاة.

انفجر ضاحكاً مرة أخرى. مما لا شك فيه أن الكاتب كان يستمتع بجمله العفوية المبهمة. كانت "أولمبيا" تستقبل هذه الجمل بالطابع المتفهِّم والمتقزز مثل فتاةٍ مغناجٍ في صالونٍ باريسي. أما "هوغو" فكان يأمل بأن يستيقظ، لا لأن هذا اللقاء المفاجئ يقترب من الكابوس، بل لأنه يخاف، فوق كل شيء، من أن تصبح باهتةً تلك الصورة التي رسمها في خياله لـ "آبيركومبري". ومع ذلك، وبينما كان الكاتب يلقي خطبته، تساءل "هوغو" عما إذا لم يكن "راستابان" قد دفعه إلى هذا اللقاء بمكر من أجل أن يحصل على بعض المعلومات عن البارون "ميدي". كما أنه استفاد من لحظة قيام الكاتب بإفراغ كأسه ليسأل، متخلصاً من خجله، عن الفكرة التي يكون من المناسب أن يشكلها عن "جوستاف كراكن".

- "كراكن"! هتف الروائي. هذا المدعي الكبير؟ لا أدري كيف استطاع أن يخرج من رأسي! إذ أنه من الواضح أنه لم يخرج من قلبي! وهل لدي قلبٌ فضلاً عن ذلك؟ لدي معدة بالأحرى! ها!

ها! إنها مبادرة صحية أن يسخر الإنسان من نفسه! لكنني أعرف لماذا تجرأتَ على أن تستحضر هذا الوحش "كراكن" أمامي. إنك تود أن تلعب دور القديس "جورج"، وتخلص الحسناء النائمة من السحر الذي رماها به هذا الساحر الخبيث. لِمَ لا؟ أنت قادر على هلوسة بصرية ممتازة، وسأوافق على طلبك، حتى لو لم تتقدم به حسب الأصول. اذهب! لا تتأخر! إن الباب الذي يفضي لقصر البارون "ميدي" يقع على يسار "البار". ولكن، انتبه، فالأرض زلقة هناك!

تردد "هوغو".

- هيا اذهب! اقترحت "أولمبيا" عليه مغلّفةً نصيحتها بابتسامة ساحرة.

- اعذرني، قال "هوغو"، ولكن أولاً، بما أنني قد تشرفت بلقائك، فإنني أرغب في طرح بعض الأسئلة عليك لو سمحت.

- أي أسئلة؟ سأل "أبيركومبري" مشيراً بيده إلى النادل أن يقدم له كأساً أخرى. ألا تعرف أنه لا وجود لأي جواب صحيح لأنه لا أحد يعرف أن يصوغ السؤال الصحيح؟

- بالتأكيد، وافقه "هوغو"، ولكن بعد كل شيء، فأنا أتحرّق لمعرفة من تكون السيدة "بيرت".

انفجر ضاحكاً ضحكةً "هوميروسية".

- بيرت؟ آه! أستطيع أن أجيبك بأنها ظاهرة كونية، وضلالٌ سامٍ، أو فزّاعةٌ لعصافير الدوري. ولكن، ما الذي تعتقده أنت؟

- لقد آوتني عندما كنت أكثر من يتيم تخلى الناس عنه. كنت أجلب لها المشتريات، ولقاء ذلك، كانت تتيح لي أن أقرأ ألبومات ملوّنة ملقاة على السجادة أو على أريكة الصالون الكبير. كان للقماتها مذاق عذب، مذاق الواحات حيناً والمغامرات حيناً آخر. وكانت تتكلم، وتتكلم، وتتشاجر مع نفسها أحياناً، مشهد طريف مهيب، "فاجنر" و "جينيول" معاً، وفجأةً، كما لو كنا مأخوذيْن بزوبعة، أبحرنا على سفينة "ماري - جان". ولكن قل لي أرجوك، من كانت هذه المرأة حقاً؟

- عطّارةٌ تأخذك إلى تخومك، أجابه الكاتب ثم صمت، وعاد إلى شرابه "المارتيني".

سعى "هوغو" مندهشاً لأن يذهب في هذه العبارات إلى نهاياتها القصوى لكنه لم يصل لأن يفهم دلالتها. ذلك أن كل شيء معقد بالتأكيد. سأل أيضاً كمن يلقي بنفسه في الماء من دون أن يعرف السباحة:

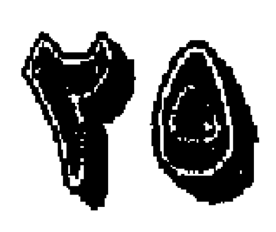
- ونافذة "آجيوس"؟ كيف أستطيع أن أجتازها؟

- مرحى لك! هتف "آبيركومبري". أرى أن قراءاتك ممتازة! ولكن ألم تفهم أنك تستمر في اجتيازها؟

- إني أجهل كلمة السر! قال "هوغو" مستثاراً.

- هي أنت، أو لا شيء، أكد الكاتب. أنت نفسك الكتاب الذي تكتبه. هيا! لا تضع المزيد من الوقت! اقلب الصفحة! "آميلي" تنتظرك.

تقـدّم "هوغـو" في البهـو مثـل مـن يمـشي في نومـه، مـدفوعاً بنظـرة "آبيركـومبري" و "أولمبيـا" الـتي ترافقـه. وعلـى يـسار "البـار"، اكتـشف، مـن دون أن يتفاجـأ، البـاب الـذي يفـضي إلى قـصر البارون "ميدي".



يطل باب "البار" على محطة "مترو" لا يعرفها "هوغو". ولم يتوفر له الوقت ليفكر بها لأن القطار دخل فيها توّاً. صعد إلى العربة الفارغة من الركاب التي توقفت أمامه مباشرة، وتركها تقله من دون أن يعلم إلى أين سيقوده هذا القطار المفاجئ.

- أوه، فكر بنوع من الازدراء لنفسه، لقد شرعت بعمل انحلال ضروري في داخلي. ذلك أن الحقيقة قلما تكون حقيقية بحيث أن الحلم نفسه يختلط باللا معنى. يسيطر عليّ سر العيش في مكانٍ يهرب مني. إن "آميلي" فقط هي من تستطيع أن تهديني لمعنىً ما.

معنى؟ بدت له هذه الكلمة طنانة بحيث جعلته يبتسم.

إن "آميلي" قريبةٌ جداً وبعيدةٌ جداً؛ حيةٌ جداً وميتةٌ جداً، ظلٌ مترنح... سوف يحررها "هوغو"، وبتحريرها يكون قد تحرر هو - وربما يكون قد تحرر "آبيركومبري" أولاً! لقد بدا الرجل له أكثر ادعاءً وزهواً وغروراً وذكاءً من أن يبدو شريفاً. أيكون مجرد طيف أو ممثل مكلف بأن يزجه في متاهة مشبوهة؟ ومع ذلك فإن هذا الكراكوز قد دلّه على الطريق الصحيحة التي تفضي إلى جحر البارون "ميدي". ماذا يتصور؟ أكان يجب عليه أن يتصور فحسب؟

توقف القطار وسط الريف. ثمة حريق أصاب المنطقة مخلّفاً وراءه أشجاراً ينتصب هيكلها العظمي في سماء ملبدة بالعواصف. وبالقرب من هنا كان القصر يرتفع مبدياً أبراجه المشؤومة مثل حيوان مفترس مستعد للانقضاض على فريسته. وفي منتصف الحصن، كانت نافذة واحدة مضاءة، نافذة ذات قوس قوطية، مثل عينٍ مريضةٍ خضراء مائلة إلى الزرقة تختبئ وراءها بلا ريب مجموعات الموت الخاصة بذلك الأرستقراطي المنحط.

أين كان "راستابان"؟ ألم تكن هذه هي اللحظة المناسبة التي يتوجب عليه أن يظهر فيها ليشير إلى "هوغو" بما يجب أن يفعله؟ ماذا يفعل وحيداً مقابل هذا السور الرطب، وهذا الجحر المخيف الخاص بذباح الطيور؟

بدأت ريح باردة تهب حينذاك، فانبثقت من الغابة قبيلة "الموشيشانار" وهي تزأر زئيراً طويلاً. كان فرسانها راكبين على خيولهم النارية، كان المحاربون الفخورون ذوو الصدرات المصنوعة من الفراء والقبعات المصنوعة من الجلد يرفعون سيوفاً ملتهبة يتطاير منها الشرر في الظلام. وفي مقدمتهم كانت "سارة لاجراند" العجيبة جاثمة على فيل هندي ضخم، كان يركض بسرعة كبيرة رافعاً خرطومه بغضب شديد باتجاه السور.

بعد ذلك تحول هذا القطيع الهائج إلى جيش منظم. كان الفرسان يجوبون الآفاق مثل محيط هادر وقت العاصفة. من أين أتوا هكذا؟ من أي أراضٍ بعيدة ومجهولة؟ من أي قارة مغمورة؟ أكانوا كائنات بشرية خارجة من فيضانٍ ما، أم أشباحاً منبثقة من أعماق

الأرض؟ أي نداء يلبُّون؟ يبدون جميعهم خاضعين لقوة عليا قادرة على أن تتحدى الطبيعة الجامحة - وحتى الموت نفسه!

- حان الوقت لاستئصال قوة "جوستاف كراكن". هذا ما كنت تتمناه أليس كذلك؟

كان المشهد الذي يفرض نفسه على "هوغو" مباغتاً وفريداً لدرجة أنه لم يستطع أن يتملص منه. أكان هذا المسرح الخرافي يُعرَضُ في داخله، أو في أي مكان آخر ناجمٍ عن أي خيالٍ تراجيدي؟ كانت تظهر فعلاً أشباح تحمل مشاعل، وكانت هذه الأشباح مومياءات ذات أكفان بالية وهياكل عظمية في خدمة البارون "ميدي"! كان عبيد العدم هؤلاء يضحكون بطريقة غريبة وقوية بحيث كنت تسمع صرير أسنانهم. كان "هوغو" مذعوراً، ولم يدر إلى جانب أي طرف يقف، مما جعله يختبئ وراء أكمة.

عندما وصل الفيل أمام السور، توقف وثبَّت قائمتيه بقوة، وأطلق خواراً سُمعت أصداؤه حتى خارج الحلم. وأمام هذه الإشارة، اجتمع جميع "الموشيشاناريين" وأطلقوا بصوت واحد صرخة كبيرة بحيث تصدع قسم من السور، ودار الفيل حول نفسه، فانهارت أحجار السور مثل وابل من المطر.

استفاد الفرسان من هذا الصدع، وولجوا داخل القصر، وهناك في هذه اللحظة، وجد "هوغو" نفسه - ولم يدر كيف حصل ذلك - إلى جانب "جرابار" في نطاق الصالة الكبيرة التي كان جامع الجثث المشؤوم قد أسماها "الأعجوبة".

كان "راستابان" قد وصف هذا المأتم تماماً، إذ كانت معروضةً على الجدران طرائدُ من كل نوع مصطفة كما لو كانت تريد أن تقوم باستعراض جنائزي. كان كل نوع من الحيوانات القابلة للصيد معروضاً هنا، من الأسد إلى الأيِّل، ومن الخنزير إلى النمر، مروراً بصنوف الحيوانات البرية جميعها، كالبوم والأرنب والصقر والقط البري. كانت الضحايا المحنطة تنظر بعيونها الزجاجية مستغربة الحالة التي وصلت إليها، إذ أصبحت تراباً وجماداً. إن نوعاً جديداً من سفينة نوح يتمثل في هذه المجموعة ويبدو مجدِّفاً باتجاه عَدَمٍ لا يقاوَم، منهوشاً سراً بالهوام التي تحفر، هنا وهناك، ثقوباً في جلود تلك الحيوانات الجافة.

أما بالنسبة إلى التابوت الزجاجي حيث ترقد "آميلي"، فلم يكن "هوغو" بحاجة لأكثر من لحظة حتى يكتشفه. كان يحرسه بوَرَعٍ أقزام الأسطورة السبعة المشهورون.



الدفتر ٣٥:

ما الذي اكتشفته؟ عندما رمت بنفسها من أعلى الجسر أمام معبر قطار الثانية عشرة وثلاث وثلاثون دقيقة، قلبت "آميلي" الزمن وأجبرته على أن يعود إلى الوراء. أكان ذلك مناسباً؟ لا شك أن "جرابار" جاء ليساعدني على رفع غطاء التابوت الذي ترقد فيه صديقتي، بما أن "راستابان" كان قد خرج سليماً من قبره، وبما أن السيدة "بيرت" والأستاذ "ميسمر" قد أكملا رحلتهما البحرية حول العالم على ما يبدو. لم يكن مقتل كينيدي سوى ترهة مقابل البلبلة العميقة التي أحدثتها قيامة "آميلي" من قبرها.

إنها هنا إذن، بجانبي، في غرفتي المغلقة - مغلقة لأنني سددت الفتحات جميعها إذ سحبت الأباجورات ووضعت الخزانة وراء الباب خوفاً من أن يفر أحد الأخوين "مورايا" من القن ويأتي للانتقام.

قالت:

- بينما كنت أنام استقبلني بحر واسع.

يا لهذا الربيع! "آميلي" وردة متفتحة. ومع ذلك فعندما دخلت إلى المقهى لم تكن سوى غجرية ذليلة مجروحة الركبتين زائغة العينين. كانت تحمل بداخلها أسرار المنفى جميعها. لقد ربط، ما بيني وبينها،

هوسٌ نادرٌ هو الحقيقة الوحيدة مع ذلك: حب أقوى من الحب، انقلاب العالم، عيد الغطاس والأنهار جميعها التي تصعد إلى النبع والنجوم التي تنشد "فيني كراتور"، وشمس الشتاء في قعر بئر.

قالت:

- يجب عليَّ أن أعتني بالطيور بصورة أكبر.

كانت تتحدث لكن صوتها كان منخفضاً جداً بحيث أنني لم أعد أسمعه. وكان جسدها يتلاشى شيئاً فشيئاً هو أيضاً، يمتزج في السجادة، ثم يغيب. وفي هذه اللحظة بالضبط، دوَّت صافرات المدينة جميعها. هل أعلنت الحرب؟ ثقب أسود. انقطاع الصلة بين الداخل والخارج. لا اسم للصمت المطبق.

ترانى حلمت؟ تراني تهت في مكان آخر؟ ومنذ متى؟ أوه! أوه! وكما لو شدني بعنف شديد كائنٌ قويٌ خارج جسدي لم أجد نفسي في البيت بل في صالة مطعم "لوكليرون". راحت النادلة "جانين" تكلمني بصوتها الحاد وهي تربت على خدها.

- هيه، يا سيدي المحاسب! ما الذي جاء بك ها هنا؟

أكنت غائباً عن الوعي؟ غائباً عن الوعي؟ ألست غائباً عن الوعي دائماً!

رنَّ جرس طفولتي أيضاً. كان برج الكنيسة عالياً جداً تحت الثلج! ما زلت أراه بشفافية تعود لماضٍ بعيدٍ جداً. تفصلني مئتان وخمسون درجة عن الوصول إليه! من هناك في الأعلى، كنت أرى مزرعة الورد، التماثيل الحالمة، بحيرة الإوز، الهيكل ذا المبخرة، قماش الخيمة المتنقلة،

لعبة الخيول الخشبية المكشوطة، ارتعاش العشاق على المقعد، بضع كلاب صفراء، والكشك الذي يعزف الموسيقيون فيه على آلات النفخ لدرجة إجهاد رئاتهم منقادين لإشارات عصا فتاة صغيرة عجيبة، طفلة غريبة بيضاء مثل الشمعة العسلية. كانت الموسيقى خافتة في البدء قبل أن ينفجر صوت الأبواق فجأةً. وأنا كنت تائهاً على المصاطب المزهرة، حيث كان الناس يشربون ويتحدثون، كنت أطرد الأطياف بينما كانت أمي، هناك، في الماضي البعيد، تطوي أَسِرَّةِ المسافرين، أولئك السادة الطيبين.

- سيدي المحاسب، ما الذي جاء بك؟

هذه العزيزة "جانين"! كيف تفهم أن كُوَّةً قد انفتحت على امتداد المحيط اللا نهائي؟ لقد انتصر "الموشيشاناريون" على البارون الملعون و "كراكن" الخسيس والوحش الكاسر الذي يرتدي مئزره الجلدي. ودُفِنَ الأخوان "مورايا" في قنٍ خرب يعود لعانس صماء. فليبقيا فيه إلى الأبد! فهذا قليل عليهما!

أما بالنسبة إلى "آميلي"، ألم أتركها وحيدة في غرفتي؟

كان "جرابار" قد ساعدني بالأمس على نقلها إلى سيارة طلبها على وجه السرعة. أذكر جيداً أننا مددناها على المقعد الخلفي. ثم وصلنا إلى المدينة. كان كل شيء مضاءً كما لو كان اليوم يوم عيد. كان الناس يلوِّحون بالأعلام من النوافذ. أمام "فندق المدينة"، جاء وفد من السادة الذين يرتدون الثياب السوداء لتهنئتي برصانة كبيرة. قالوا لي: "طوبى لك! فقد قطعتَ المراسي القديمة". ثم هرعنا إلى شارع "ديشليت"، حملنا "آميلي" على ذراعينا حتى الدرج. كانت السيدة "ميرلان" تنتظرنا مع سلة ورد قطفتها بينما كنا نصعد إلى الطابق الذي نسكن فيه. ثم - أنا

متأكد من ذلك - بقيت وحيداً مع "آميلي". عاد "جرابار" كي يهنئ جيوشه على النصر. أسدلتُ الأباجورات، ودفعتُ الخزانة إلى الباب. ذلك أن الأخوين "مورايا" لديهما الكثير من الحيل كي يهربا من القن. نعم هذا ما فكرت فيه حصراً. بينما كانت "آميلي" في تلك الأثناء ترقد على السرير مثل سوسنة جميلة مجروحة. هذا ما حصل بالفعل.

والآن:

- سيدي المحاسب، ما الذي جاء بك؟

نعم، هذا ما كنت أتساءل عنه حقاً: ماذا حصل؟ لماذا عدت إلى مطعم "لوكليرون"؟ كان تمثال الجبس يدق النفير. وكانت المياه المعدنية تنهمر من الإعلان وتشكل مستنقعات على الأرض.

- أوه، قلت بغباء، اعتقدتك مدام "أولمبيا"... تعرفين هذه الشخصية الجميلة... "جلاديز" إمبراطورة الهند...

كانت "جانين" تهزأ من تفكيري. كيف يمكنها أن تفهم؟ فهي لم تقرأ أبداً مؤلفات "آبيركومبري". ولماذا كان بإمكانها ألاّ تقرأها؟ هل لأنها أميّة؟ ماذا تخيلت إذن؟ لقد ساعدتني على النهوض ثم الجلوس. عرضت عليّ خمراً "لأن هذا يعدل المزاج". في هذه اللحظة، نعم في هذه اللحظة، رن جرس باب المدخل. وبتلقائية مدهشة، مثلما فعلتْ في مقهى "ديزار" في ذلك اليوم، وبثوبها الخفيف الرخيص، دخلتْ "آميلي"، "آميلي" أميرة "الموشيشاناريين"، "آميلي" الحية الوحيدة منهم.

وأخيراً ظهرت لي الحقيقة لأول مرة: إن "آميلي" لم تكن سوى بائعة الورد الصغيرة أمام كنيسة "سانت - جودول"، تلك التي كان الأستاذ "ميسمر" قد أحبها كثيراً، وفتش عنها عبر العالم كثيراً. إن اسم "آميلي" الحقيقي هو "ألسين دو شاسميدي".



في مقهى "ديزار" كانوا يتحاورون. عقد المجلس الحربي اجتماعاً بإدارة العطار "باربوزان". وترأست الاجتماع "لويز بوزيان" من أعلى صندوقها. وقدم المشورة الكبرى كل من "ميرون" و "مورينو". وتم قبول "مارسيل" جالساً على مقعد صغير.

- أيها السادة، بدأ "باربوزان"، هناك شيء يسير على ما لا يرام. إن صديقنا العزيز "هوغو" غائب منذ بضعة أيام.

- هناك ما يقال، هتفت "لادوكول". فقد طرده "برونتان" القذر. يا للعار!

- كما أن موت كينيدي قد هزّه. قال "ميرون".

- إنه رجل حساس، قال "مورينو".

- حالم، حددت "لويز" وهي تصفف شعرها أمام المرآة. إنه يذكرني بالمرحوم زوجي. فهو دائم البحث عن مظلته أو نظارته.

- ربما أنه يكون قد شرب الكثير من "فيرنت - برانكا"، قال "مارسيل".

نظر "باربوزان" إلى النادل شزراً، تنحنح، وألقى بصوت مهيب الخطاب الصغير الذي كان قد أعدّه وظل يكرره طوال الليل:

- أيها السادة، إذا كان لدينا أدنى تعاطف مع "هوغو"، فعلينا أن نعتقد أن قيام "برونتان" بطرده سوف يصل بصديقنا حتماً إلى "النهايات القصوى المشؤومة".

"النهايات القصوى المشؤومة". كان قد عثر على هذه العبارة نحو الساعة الثانية فجراً، فنهض وسجلها على مفكرته، خوفاً من أن ينساها.

- أنت تخيفني! قالت "لويز" مرتعدة.

- هذا صحيح، قال "ميرون". عندما رأيناه في منزله لم يبدُ أنه طبيعي البتة.

- كيف تصفون ذلك؟ سأل "مورينو".

- وجهه أصفر... أجاب "باربوزان".

- في رأيي، قالت المحاسبة، إنه يجب أن نرسل وفداً إلى "برونتان" كي يعيد السيد "هوغو". ربما يتراجع هذا القذر عن قراره...

- أتظنين ذلك! قال "ميرون" متعجباً. إن ذلك الرجل هو ذباح الطيور! أي أنه بلا قلب! والدليل على ذلك أنه لا يأتي ليلعب الورق معنا أبداً. إن هذا السيد يعتبر نفسه كبيراً!

- لاحظوا أن "جول" رب عمل، قال العطار. إنه يحرص على حساباته، وهذا طبيعي تماماً.

قال "مورينو" محتجاً:

- أتلمّح إلى أن لديه شيء من الحق في أن يتخلص من "هوغو"؟

- لا، لا! لا تقوّلني ما لم أقل. ولكن ماذا تريدون، يحق لنا أن نطرح بعض الأسئلة.

- وهذا يعني...

- ربما.

- وبصورة خاصة لماذا قال لنا "هوغو" إنه سيرحل؟

- بهذه السرعة، هذا غريب، قال "مارسيل". وإلى أين سيرحل؟

- أتعتقدون أنه يريد الهرب؟ سألت "لادوكول".

- أوه! أوه! يجب ألا نبالغ! لا أعتقد أن "هوغو" قد خان وظيفته. ولكن المحاسب...

- رجلٌ يحلم بالربح...

- وبعد كل شيء، فنحن لا نعرفه بصورة ممتازة، قال "ميرون".

- من الصحيح أنه يجب علينا ألا نركن للمظاهر، قالت "لويز".

- كل ما نستطيع تأكيده، قال "باربوزان"، أنه لم يكن مشهوراً في لعب الورق.

- شاب يشرب "فرنت - برانكا" كما لو كان يشرب من مياه النبع... قال "مارسيل".

- نحن نعيش زمناً غريباً، قال "مورينو".

- نحن نسبح في بحر الاحتيال، أضاف "ميرون". إلى من يمكننا أن نركن؟

- لم يعد مجلس الشيوخ في أثينا، أكد "باربوزان" الذي كان مثقفاً إلى حدّ ما ويريد أن يجعل الآخرين يعرفون ذلك.

- على كل حال، قالت المحاسبة، هذا ليس من شأننا. أقول دوماً إنه يجب علينا ألا نحكم على شيء لا نعرفه.

- تماماً، قال "ميرون"، فمن يحرك النار يكتوِ بها.

- ولا دخان من دون نار، قال "مورينو" وقد بدأ في خلط الورق.

- دور من في التوزيع؟ سأل "باربوزان".

انتهى المجلس الحربي.

وهكذا، قال الأستاذ "ميسمر"، تدركون أن عالماً آخر يعيش في عالمنا، وعوالم أخرى في هذا العالم، متشابكة في الفضاء نفسه والزمان نفسه. أليس من المدهش أن نعتقد أن آلافاً من الأشخاص الآخرين يمشون في خطواتنا، في المكان الذي نمشي فيه معتقدين أنهم الوحيدون الذين يسيرون؟

- من "ألسين"؟ سألت "آميلي".

- الخطيبة التي يحلم بها الأستاذ "ميسمر". الساحرة التي كان "روجيه" قد نسي "برادامانت" بين ذراعيها!

- من كانت "برادامانت"؟

- سيدة أنقذت "روجيه" من ساحر شرير.

- و "روجيه"؟

- رأس بلا دماغ. سينتهي بأن يتزوج من "برادامانت".

- والأستاذ "ميسمر"؟

- سوف لن يتزوج مطلقاً من أي كان. إن "ألسين" تكفيه.

- اروِ لي قصة أخرى...

- نحن لا نزال في القصة.

راحت "آميلي" تفكر. عندما كانت طفلة، طلبت قصة لها وحدها. قصة مخيفة... "قصة من تلك القصص التي كنتَ تقرأها على السجادة في منزل السيدة "بيرت" عندما كنتَ طفلاً. أو ذكرى من السفر...".

فتح "هوغو" الدرج الذي وضع فيه دفتره الأخير، وبينما جلست الفتاة الشابة مقابله، راح يقرأ ما كان قد وعد نفسه بألا يبوح به لأحد.



قرع الباب بقوة.

- افتح لي! من المستحيل أن تختبئ عني! أعلم أنك هنا! أنا "برونتان"! هيا! افتح قبل أن أخبر الشرطة!

ما إن حرك "هوغو" قفل الباب حتى أصبح صاحب محل التحنيط داخل الغرفة. كان وجهه محمراً من الغضب، وقبعته مائلة بحيث أنها ستقع على الأرض من دون أدنى شك.

- آه، ليتني كنت أعلم أي ثعبان ربيته في حضني! أنا الذي كنت أثق بالأستاذ "ميسمر"! كان يؤكد لي قائلاً: "إنه فتى صغير طيب". فلنتكلم عنك! إنك فوضوي، رذيل، ولا حرمة لديك! حتى أنك غير جدير بمسك دفاتر الحسابات! آه، كنت أشك بشيء ما، ولكن ليس لهذه الدرجة! محاسبي الجديد استطاع أن يكتشف الأمر بأقل من ثلاث ساعات! وأنا من كنت أعتمد عليك مغمض العينين! أنت غير جدير بشيء! كل حساباتك خاطئة ولن أتكلم عن النسب المئوية! كأنك كنت تجمع الأرقام وأنت نائم! بالنسبة إليك فإن ٢+٢=١٢٥! آه، كنت أفضل لو أنك كنت تسرق من الصندوق! على الأقل تكون لصاً في هذه الحالة! لكنك لم تفعل! أنت على درجة من الغباء لا تؤهلك حتى للتفكير بالسرقة! لا يُعرَف لحساباتك رأسٌ من ذيل! ففيها يفقد

الخنزير صغاره! ولو كان هذا كل ما في الأمر، لقلت لا بأس! إن سيادته لا يريد أن أنفصل عن شخصه الكريم. لكن سيادته أراد أن ينتقم. ذهب سيادته إلى منزل البارون "ميدي" أفضل زبون عندي، هذا الأرستقراطي الذي ينحدر من "فيرسانجيتوريكس"! وهناك كنتَ حانقاً ومسعوراً لدرجة أنك دفعت الخادم العجوز، ودخلت عنوة في البهو ثم في صالة المجموعات التي قلبتها رأساً على عقب، ورميت الحيوانات الطبيعية على الأرض، تلك التحف الفنية التي صنعتها بيدي! يا للعار! وأي عار! قطع ثمينة تتلفها بلحظة! وسنوات من العمل الدؤوب المكرس للجمال تنهيها بفظاظتك! وهذا ليس كل شيء! فحين أصبحتَ راضياً عن عملك، والتقيت بالبارون وهو عائد إلى البهو، بصقتَ في وجهه لدرجة أن هذا الرجل المسكين ظنك مجنوناً! ولكنك لست مجنوناً أيها البصاق! أردت أن تخرب علاقتي مع أفضل زبائني. وقد نجحتَ في ذلك تماماً! افرح أيها الوغد! من الآن فصاعداً سيأخذ البارون طرائده إلى "أزنار"! هل تدرك ذلك؟ إلى "أزنار" أشدّ منافسٍ لي، ذلك الذباح الذي يحشو ذبائحه كيفما اتفق! فيضع في عيون القطط أزرار الأحذية التي يسرقها من سوق العُتَق! ومن جهة أخرى فإن زوجته، لا تحدثني عن زوجته! فهي مومس حقيقية! أرأيتَ شعرها؟ لا أيها المسكين الصغير، أنت لم تلحظ شعر زوجة "أزنار" المخدوع، لأنك لا تلاحظ شيئاً، فأنت الغائب الأبدي، رجل من دون بصر، لا فقاري، بزاقة في المجاري! تماماً! وأنا أقيس كلامي بدقة! طالما أنك خرجت من بين يدي السيدة "بيرت" فلا يمكن أن تكون إلا معتوهاً! تلك المرأة التي كانت تحسب نفسها ملكة بريطانيا لم تكن

سوى صاحبة دار للبغاء! حيث وجد "أزنار" مضجعاً له فيها، وأنا على يقين من ذلك، بالإضافة إلى المقامرين مثل أولئك الذين تعاشرهم في مقهى "ديزار"، هذا الأحمق الكبير "باربوزان"، وهذه اليرقة "ميرون"، من دون أن نتكلم عن "لويز بوزيان" التي كانت تمارس البغاء قبل أن تصبح محاسبة! عالم رائع حقاً! أنصاف مجانين، وهؤلاء هم الأفضلون! فالباقي لا معنى له!

عند هذه العبارة الأخيرة، توقف "جول برونتان" كي يتلذذ بفصاحة خطابه من دون شك. أخرج منديلاً كبيراً من جيب بنطلونه ومسح جبينه، ثم استأنف كلامه بلهجة أكثر هدوءاً:

- لاحظ يا صغيري أنك في وضع سيئ لا تحسد عليه. فأنت أحد أولئك الناس الذين اختاروا الرقم الخطأ في اليانصيب. نعم هكذا. لا نستطيع أن نفعل أي شيء مع القدر. مع أن الأستاذ "ميسمر" حاول أن يساعدك، وأنا أيضاً... ولكن ماذا تريد؟ فأنت لا تتمتع بموهبة المحاسبة ولا بأي موهبة على الإطلاق. دماغك أدنى من دماغ دودة الأرض. والآن ماذا ستصبح؟ أتساءل عن ذلك. فالمجتمع ليس بحاجة إلى حالم ولا إلى متمرد. يلزمه الرجل البنّاء الصلب حتى لو كان كل شيء في خاتمة المطاف ضلالاً، ولكن حتى الضلال يا ولدي يجب أن تعرف كيف تستخدمه. خذ حالتي مثلاً: فأنا أحول الجثث إلى تحف جديرة بالعرض. هذه تجارة! وأضيف إليها الفن. الفن! هل أنت جدير بأن تتصور ما معنى ذلك فقط؟ الفن! "دانتي"، "ليوناردو"، "جوته"، "فيلكس بوتان"! والنتيجة: يحترمني الناس. ولكن أنت، ماذا باستطاعتك أن تقدم؟ ها؟ أسألك... لا شيء! أما بالنسبة للتعويضات

الشهرية فلا تفكر فيها! فلو غادرت بطريقة فيها أدنى درجات الأدب لكنتُ مديناً لك بها. بيد أنني في هذه الحالة ينبغي عليَّ أن أتقدم بشكوى ضدك لأنك أفقدتني أفضل زبائني، لكنني في النهاية لن أذهب إلى الشرطة كرمى لذكرى صديقي الأستاذ "ميسمر". إن حِلْمي ينقذك من العار ومن السجن، هذا ما يجب أن تعرفه! فأنا رؤوف في أعماقي. وأخشى أن أضيع بسبب طيبتي.

ومن دون أن يلقي تحية الوداع، ركّز قبعته وذهب بوقار.



كانت "آميلي" ترتجف من البرد (أو من الخوف) وتقول إن القصة التي أراد أحد ما أن يسجنها فيها صعبة التحمُّل. ماذا كان يحصل فيها فعلاً؟ الحياة، هل هذه هي الحياة؟ أي ذنب اقترفته كي يحولها "جوستاف كراكن" إلى هذه المومياء البيضاء الممددة على الأزهار المرمية على الأرض؟ ميتة. كانت ميتة إلى الأبد. أكان ينبغي عليها أن تفهم أن هذه بالضبط هي الحياة! ومع ذلك فقد أرادت أن تهرب وتلتحق بـ" هوغو" على سفينة "ماري - جان" وأن تتعرف على السيدة "بيرت" والأستاذ "ميسمر". وأن تُسمَّى "ألسين"، لمَ لا؟

عادت في فكرها إلى هذين الشخصين الذين أسمتهما "زاريف" و "كليرجي موراليا" من قبيلة "يوسوم". فقد عرفتهما في طفولتها، وروت كيف كانا يتصرفان مع عائلتها في ابتزاز المال وإخضاع الفتيات وخطف الشباب لإجبارهم على العمل في صناعة سوداء لا نعرف ما هي.

فكّر "هوغو". في حياته اليومية عندما يذهب إلى مقهى "ديزار"، فإن هذين الرجلين يدعيان "باربوزان" و "ميرون". الأول عطار، والثاني مأمور في البرق والبريد. كان يبدو عليهما أنهما هادئان وأليفان عندما كان "هوغو" يلعب الورق معهما ومع "مورينو". وكان "هوغو" يحب

عندما يخرج من محل التحنيط أن يمضي ساعة من الوقت معهم بانتظار وقت العشاء في مطعم "لوكليرون".

أكانت "آميلي" تهذر أم كان هو من أخطأ معرفة الواقع الحقيقي منذ بعض الوقت؟ مما لا شك فيه أنه كان يشرع في تغيير المكان والزمان، ولا سيما عندما يكتب، فيجد سنوات شبابه عبر رحلة فريدة، بيد أنه لا يستطيع أن يشك في أن "برونتان" قد طرده، وأن شركاءه في لعب الورق قد جاؤوا ليعبروا عن تضامنهم معه. والحقيقة أن الأستاذ "ميسمر" قد تنبأ بذلك. هناك عوالم لا تحصى متداخلة ببعضها. كان الأستاذ يدعوها "الدوائر المتداخلة". وكان الطفل قد حوَّلها إلى "الأمهات الحاضنات"، أولئك اللواتي كنَّ يأتين ويحرصن على مرافقته إلى السرير ويبقين قرب وسادته إلى أن ينام.

كان وحيداً ومهجوراً منذ الأزل. وكانت قد استقبلته السيدة "بيرت" ثم الأستاذ "ميسمر". وهو مدين بالعرفان لهما. فلولاهما لما كانت هنالك صورٌ ولا كتب على السجادة، ولكان ميتاً، فارغاً، عديم الفائدة يعيش خارج كل رواية. أما حياته لدى "برونتان" فلم تكن سوى تتالي الأرقام الجنوني. كانت تتيح له أن يدفع إيجار الغرفة ويتناول العشاء في مطعم "لوكليرون". ولم يكن ليطلب أي شيء أكثر من ذلك، شريطة أن يتركوه يستمتع في صمته.

أما "راستابان"، ذلك البطل الكبير، فقد استسلم للموت في "دالاس". لم تكن "آميلي" قد حلت محله، لكنها سمحت إلى "هوغو" بأن يتكلم مع شخص ما، هو الذي، فيما يتعلق بالنساء، لم يقرب سوى "بيرت" العظيمة المتناقضة، و "ميرلان" الثرثارة، و "جانين" مطعم

"لوكليرون"، والتافهة "لويز بوزيان" أمينة صندوق مقهى "ديزار". أهذه نسوة؟

ظلت "آميلي" طفلة، وظلت أيضاً برِّية ومتمردة وقادرة على أن ترمي بنفسها من أعلى الجسر كي ترفض العالم الفاسد والواقع السيِّئ القسري والعقيم الذي يفرضه المجتمع. كان "هوغو" يجد فيها صورة روحه ذاتها، وربما أنه كان يفتش ولا يجد هذه الروح الداخلية القادرة على تغيير وجه الحياة. الحياة التي كان الأستاذ "ميسمر" قد فهمها جيداً وأسماها "ألسين".

لقد جاب "راستابان" آفاق الكوكب وتزوج كل القضايا. كان على "هوغو" أن يعود إلى الحقيقة البديهية التي مفادها أن "راستابان" لم يغير أي شيء، حتى موته لم يغير أي شيء. أما "جونسون"، نائب الرئيس، فقد أقسم اليمين الدستورية أمام "جاكي" الغارقة في دموعها، لكن تلك الدموع ستنضب، ويتتالى رؤساءٌ جدد. ففي مكان آخر لا بد من إيجاد نقطة الضعف الجديرة بقلب النظام القديم.

كان "الموشيشاناريون" قد سعوا لمحاربة الوحش عبثاً، والأخوان "مورايا" قد وجدا نفسيهما حبيسين داخل فن، وزبائن مقهى "ديزار" قد تابعوا لعبة الورق وهم يصنعون من هنا وهناك عالماً كانوا يجهلونه في قرارة أنفسهم.

الدفتر ٣٧:

- *قراءة جريئة! قالت السيدة "بيرت" لنفسها.*

- *هذا الشاب عديم الشفقة... قالت السيدة الأخرى.*

- إنها طريق تنحدر إلى أعماق البحر، قال الأستاذ "ميسمر" الأكثر معرفة من أي إنسان آخر. أفلا يقال إنها مذكرات هذا المدعي الذي سيبقى نحو مئة عام في كهف، ويستفيد من ذلك بأن يشكل الواقع في حكاية رائعة ليس ملك العالم فيها سوى جرذ؟

صفقت "بيرت" وذكرت:

- "جرذ! جرذ! من يحلم به؟ أعرف أنك صديق، وصديق قديم، وأنت لا تريد أن تؤذيني، فكّر أنني حشرة".

- أوه! أوه! قال الرجل الطيب العالم. لا تمنعي "السين" الساحرة من أن تسبح في نهر "السين". فقد فعلتْ ذلك مرة واحدة، وإلى الأبد!

- هراء، قالت "بيرت" الأخرى بما يشبه النعيب. من يستطيع أن يعرف الشكل الذي سيعطيه القدر لهذه الشخصية الغامضة؟ شريكة، ربما أن بعض الدوامات...

- هذا لا يمنع! إن سفينة "ماري - جان" تتابع قدرها.

ابتسم الأستاذ "ميسمر".

- سوف لن نخرج مطلقاً من رؤى أنطوان. لاحظ جيداً أنه إخراجٌ مسرحي بحت. تغطية المعنى بغطاء دافئ. طقطقات حمقاء. ولماذا لا يكون احتلال الأتراك لمدينة القدس؟

وقلت أنا:

- إنه صنبور كلمات صغير في حين تنفجر آلاف الصواعق! إنه تركُ لحظة القدر من أجل رهان كريم ومجنون! من يطلب منا أن ننهي حياتنا في صندوق؟

كان الفضاء يسيل على حافة المركب. أين تختبئ يا سر العالم؟ إنك مجرد صور.

- كيف؟ احتجت العالمة. هنالك ضجة بقربي أجهل ما هي. اصمتوا من فضلكم كي نستطيع أن نسمع هذه الضجة ونعرف من يسكن فيها.

- سعيدة، غريقة تسقط بين الصفحات، بين الكلمات، في صمت الشمال الأبيض. إحساس عذب. عبادة سرية.

- يجب أن نرحل يا سيدتيّ! ألا تشعران بأننا أدرنا المفاتيح عبثاً لأنه لا يوجد أي قفل. اتركوا البوصلة دون الثمالة! اتركوا فرائسكم! اتركوا تجهيزاتكم الخفيفة! إنه قانون اعتدال الربيع يا سيدتيّ! إن هذا لا مثيل له.

صوت خلف الباب:

- سيد "هوغو"! ماذا يحصل؟ أنت لم تخرج منذ يومين! حتى أنك لم تحضر جنازة المسكين كينيدي! هل أنت بخير؟

- أريد أن أكون وحيداً فحسب يا سيدة "ميرلان".

- آه، حسناً! ولكن هل هذا صحيح؟ ألست بحاجة إلى أي شيء؟

- لا شكراً يا سيدة "ميرلان".

- لأنه إذا كان الأمر غير ذلك، فأنت تعرف أنه يمكنك الاعتماد علي، أليس كذلك؟ ولكن مع ذلك دعني أقول لك أنه قد فاتك شيء ما... إن كينيدي الصغير الذي يدعى "جون - جون"، أقل من أربع سنوات، أدى التحية مثل رجل عسكري حقيقي عندما عزف النشيد الوطني لدى دفن والده. كان ذلك مؤثراً جداً. لم أستطع أن أمنع نفسي من البكاء. وبعد ذلك، ألا تريد أن أجلب لك حلوى الفاكهة؟

- شكراً يا سيدة "ميرلان"، فأنا أعمل.

- هذا ليس سبباً كافياً كي تترك نفسك تموت من الجوع. أنا لا أصر، ولكن يجب ألاّ تتردد. في حلوى الفاكهة هنالك فوسفور، والفوسفور جيد للدماغ. إنه مقوٍ!

رفعت سفينة "ماري - جان" أشرعتها إلى الأبد. انحلّتْ ألفُ عقدة. همست السفينة. زغردت السفينة. أكمل القبطان عمل الفريق الذي تحول للريح الخلفية، فانسابت السفينة على سطح الماء. وأُطلقت الأبواق. وأُعلن الإبحار باتجاه الضفة الأخرى!

بعد اقتحام الموج، موكب الموج، رفعنا المرساة من الداخل.

- أيها المثابرون سلاماً!

ضحكت السيدتان "بيرت". ضحك الأستاذ "ميسمر". نزع القبطان قبعته وراح يضحك.

- باتجاه الصين! أمر أحدهم.

وقف في الظل.

- بف! قالت "بيرت" السيئة. أي تفاهة! كأننا في "بازار السينما" مساء يوم الجمعة.

دُهشت "آميلي". تساءلت لماذا "بيرت" الأخرى هذه تريد أن تكسر الحلم ولماذا يوليها "هوغو" اهتماماً كبيراً. فقال:

- سابقاً، بينما كانت إحداهما تعطيني الكتاب بيدها البيضاء وتحضر لي اللقمات والحلوى، كانت الأخرى تجذبني إلى الكنبة وتقبلني.



كان "هوغو" يكتب. لا بد من أن يغير الدفتر عما قريب.

اعتقدنا بسذاجة أن سفينة "ماري - جان" دخلت لتوها البحر الداخلي الشهير الذي كان القبطان قد وصفه لنا. لاحظنا بعدئذ أننا لم نغادر مصب النهر كي نرتمي في اقتحام محيط جديد. أغلق الأستاذ "ميسمر" كتاب الشاطئ بنوع من السأم. فذهبت لألتحق بالملاح الذي كان سكراناً كعادته وينشد الشعر ووجهه غارق بالدموع.

"هذا الشيء من الغموض

الذي يجنح للولادة

نداءٌ لا يكلُّ لضفة أخرى

تَجَلِّي القمم أو عنابر الفحم

لا نعرف

في أي مكان لا يوصف

أي مذكرات تافهة وكبيرة

تحت مياه النهر الجوفية

وتحتها أكثر

تصعد إلى فجرِ

صمتٍ تشوشه دوماً

الثرثرة الدائمة

وضجة الصدوغ المشدودة".

لمن هذه القصيدة؟ من أي أعماق سحيقة انبجست؟ كان العزيز "ميسمر" قد فقد "السين"، الفاتنة الرائعة، الإلهة والعبدة، زوجتنا، أختنا، تلك المرأة التي تنهض كل صباح من وركنا وتنام كل مساء على تخوم رغباتنا الملتهبة، شبيهة بشمس رزنامتنا الداخلية ذات الوجهين.

من المؤكد أن من قاربوها نادرون، لكن كل المدينة تحلم بها. لقد شكلناها جميعنا من صلصالنا الخفي. وصاغ منها البعض هذه التماثيل العالية من الرخام التي تبدو منارات مقابل البحر. أما بالنسبة للآخرين، أي لمعظم الناس، فإن "السين" كانت مجرد قطع من الحلوى كانوا يثقبونها بالدبابيس تحت ملاءات الليل.

في هذه القصائد، كان الملاح يمجِّد الساحرة التي تتخذ شكل نجمة تهوي في الأفق، ثم تشعُّ بعد وقتٍ قصيرٍ لمعاناً بنفسجياً أمام عيوننا في لحظة غيابها. حينذاك كان البحارة يستعيدون بصوت خافت إحدى الأغاني الحزينة الخاصة بالمواخير والعنابر التي تروح وتغدو فيها عجائز عاريات أبديات بشعورهن الثعبانية وفمهن الأدرد الذي يفوح برائحة كريهة ونهودهن وأفخاذهن الموبوءة بالديدان.

وهكذا كانت سفينة "ماري - جان" تنساب عبر لياليـنا الداخلية ببطء، وعلى مقدمتها فانوس صغير يضيء وجهاً أكله الملح، وجه عروس البحر المنحوت الذي يسير أمامنا.

متكئين على الدرابزين، كان الواحد منهم يحلم، والآخر يهمهم. وكان أحد البحارة يستند إلى الصارية وينظر إلى الجدار الأسود الذي يتقدم ويبتلعه ويعيده دوماً إلى ضجره. ذاك كان يستنشق الريح الساكنة تهب على شعره وهو جالس على الحبال. وهذا الآخر كان يسمع الدفة وهي تطقطق. لا شيء يتحرك. كانت سفينة "ماري - جان" تتقدم وتنقل الأشباح. وأشرعتها المفرودة تغيب في الماء الغامض الذي لا يعكس أي حركة. وكان الأستاذ "ميسمر" يرثي لحاله بمرارة.

كان يفكر بقوة بهذه المرأة التي أحبها وما زال يحبها لدرجة أن يديه ارتجفتا. سقط الكأس وانكسر. لكنه لم يرفع حتى رأسه لأن الحلم كان يشده. كان هنالك صندلٌ منسيٌّ على طرف السرير، ووشاحٌ ملقىً على الدرابزين، وشبحٌ في الحديقة الرطبة. على أي طريق كانت تسير عراقيب الثلج؟

كانت سفينة "ماري - جان" تتقدم في نفق من الزيت والحرير. على مقدمة السفينة كان نظر هذه المرأة فقط يجتاز قضبان الهجرة المتتالية التي تلتصق بجانبي السفينة، وتهز الصواري، وتتلاشى فقاعاتٍ تتدفق في مؤخرتها. لم نكن نحس سوى بحركة متقطعة، وبتنفس الموج المريض الذي كانت تمزقه صرخات النوارس الغاضبة السوداء.

- لن نتمكن من النوم، قال الأستاذ "ميسمر".

في هذه اللحظة، بدا لنا في الواقع أن المركب يغوص في الماء مثل مساحة واسعة من الحمم السائلة، لا سيما أنه يغوص في ضباب كثيفٍ ككثافة الطين. كان هناك صوت بومة جريحة على السفينة متبوعاً بانفجار الصواعق.

- لا، لن نتمكن من النوم، كرر الأستاذ "ميسمر".

كانت سفينة "ماري - جان" تغيب في أحشاء هذا المحيط المفقوء العينين، فيلتهمها هذا الأخطبوط الكبير. ثم دخلت رائحة تبعث على الغثيان في حجرتنا. وانطفأ مصباحنا الأخير.

- وهكذا، قال "هوغو"، مثلما توجد حاضرة أخرى تحت باريس، هناك "ماري - جان" أخرى في المكان نفسه الذي تسطع فيه سفينتنا في المحيط. ركّابها مجهولون بالنسبة إلينا، لكنهم يترددون علينا.

- يجب أن نعود إلى "الفندق الكبير"، اقترحت "آميلي". إن سفينتك هذه لا تنقل سوى الحسرات.

الطفولة: أب مجهول، أم مومس، سيدة محسنة وغادرة... المراهقة: أستاذ طيب يحلم بالكتب والأسفار، عاشق "ألسين" الخيالية... و "هوغو" في هذا المسرح يتكيف مع المسرحية بأسلحة بيضاء تماماً: أحلام استفاقت من جديد، ودفاتر صغيرة مربعة. واحسرتاه، كانت الأحلام ملفّقة والصفحات ملطّخة. فهو لا يحشو الماضي مثلما يحشو "برونتان" السناجب والخنانيص.

- نعم، قال "هوغو"، سوف نعود إلى "الفندق الكبير"، ونجرؤ على أن نزور جميع الطبقات. يا "آميلي"، بما أن "راستابان" قد ذهب، فسوف تقومين أنت بإضاءة الطريق لنا. أترغبين في ذلك؟ سنكون أقوى لأننا اثنان. بسرعة! لنعبر نافذة "آجيوس".

ليس عليه هذه المرة أن يفتش طويلاً، إذ يكفيه أن يغمض عينيه ويذكر كلمة السر التي كان قد اكتشفها سابقاً في حجرة مليئة بالغيلان وجنيات قصة "إيبينال" المصورة. أوه، ليست هذه الكلمة كلمة طفلية من قبيل "افتح يا سمسم" أو "رون رون رون" أو "كاريبي تيتي كاريبي توتو كارابو". إنما كانت كلمة واحدة، لكنها صعبة القراءة بحيث أمضى "هوغو" وقتاً طويلاً كي يستطيع أن يستخدمها. وربما أنه لم يكن لديه الحق في الاطلاع عليها إلا بفضل "راستابان" الذي علّمه كيف يتهجاها، ثم بفضل "آميلي" التي أظهرت له كيف ينطقها. أما "رالف آبيركومبري" المتعجرف، فلم يكن له أي فضل في هذه المسألة.

تفتح نافذة "آجيوس" على القاعة الخلفية لمقهى "ديزار". سمعنا صوت "باربوزان" منها.

- وأنا أقول لكم أن "ليندون جونسون" هو من دبّر مقتل كينيدي! من دون هذه الطريقة، ما كان هذا الشخص ليصبح رئيساً أبداً.

- إنها ضربة حملت توقيع مافيا الشاحنات، قال "ميرون"، وقد قرأت ذلك في جريدة "باريس المساء"!

- أوه، هـذا لا يثبـت شـيئاً. فمـن قـال لكـم إن "جونـسون" لـيس بالضبط زعيم المافيـا الطويلـة الـذراعين؟ لقـد سبق لنـا أن رأينـا الأسـوأ من ذلك.

- هه، قال "مورينو"، هو ذا السيد "هوغو"...

استدار الجميع.

- اعتقدنا أنك قد رحلت، قالت "لادوكول" مندهشة.

كـان وجههـا مزخرفـاً مثـل وجـه مهـرج: أبـيض مـع وجنـتين حمـراوين وحواجـب مخططـة بقلـم الفحـم. وكانـت قـد لبـست قبعـة عريضة فـوق شـعرها الكثيـف وفـستانَ رقـصٍ مـن "الـساتان" مرصَّـعاً بجواهـر متعددة الألوان. أكانت تذهب إلى كرنفال؟

وكان "باريوزان" يدخن سيجاراً غليظاً يصدر عنه دخان حاد. تفصيل غريب: أسفل ثيابه الاحتفالية، كان يلبس خفّاً. أما "ميرون" فكان يلبس سـروالاً قصيراً وقميص بحـار. كان يحمل مجرفةً ودلـواً مثـل طفـلٍ صـغيرٍ يلعـب علـى شـاطئ البحـر. أمـا بالنـسبة إلى "مورينـو" فكان يلبس جبَّةً مثل جبة الخوري.

- هيه، صرخ "هوغو"، ثمة شيء يسير على ما لا يرام!

ومع ذلك، فهو كان دائم الاعتقاد بأن "باريوزان" بخطاباته المتكلفة لم يكن سوى لعوب تافه، وأن دماغ "ميرون" دماغ طفل عمره عشر سنوات، وأن "مورينو" كان متورطاً في قضايا دينية بالية. أكان هؤلاء الناس زبائن السيدة "بيرت" كما تجرأ الخسيس "برونتان" على الإيحاء بذلك؟

- تماماً، قال "باريوزان". لقد نهضت هـذا الصباح ووجـدت كـل شيء قد تغير.

- وفضلاً عن ذلك فالشارع لم يعد موجوداً، قالت المحاسبة. لقد أصبحنا سجناء فراغ كبير. أليس هذا مقلقاً؟ كان المرحوم زوجي يتساءل دوماً: "لماذا هناك شيء ما بدلاً من لا شيء"؟ لقد كان "فرنسياً" بحق، وكان فيلسوفاً بالقدر نفسه.

- أوه، قال "هوغو"، يبدو لي أنني أستطيع أن أشرح لكم...

- لأي سبب أعفاك "برونتان" من عملك؟ سأل "ميرون" وهو يغمز بعينيه.

- لماذا الأشياء هي كما هي؟ إنها غلطتي. أنتم موجودون في قصتي. هي ذي المشكلة.

أخذ "باربوزان" يضحك، وقال:

- أيها المدعي الصغير امشِ!

- إنه على حق، قالت "آميلي".

- أوه، أنت! صرخت "لادوكول". نحن لا نسألك شيئاً! وماذا يعني ذلك أولاً؟ بالأمس ألقيت بنفسك من جسر تحت القطار، وتجرئين الآن على الدخول إلى مؤسستي؟

- إنها ترافقني، قال "هوغو".

- حسناً، أنا لا أهنئك على ذلك! أجابت المرأة بعد أن رمقت الفتاة الشابة بنظرة خبيثة.

- بالإضافة إلى ذلك، همس "مورينو"، نريد أن نعرف ماذا حصل فعلاً لدى "برونتان".

- إن هربك يجعلك مشبوهاً! قال "ميرون".

- أتـرى، همـسـت "آميلـي" في أذن صـاحبها، إنهمـا الأخـوان "موراي". يعذبان، يغتصبان، يذبحان!

- أيها السادة، بدأ "هوغو" قوله، ليست المافيا الأمريكية هي من قتلت من اعتقدتم أنه كينيدي. من أوصى بالقتل هو "جوستاف كراكن"، المعروف أكثر باسم البارون "ميدي". ومطلق النار ليس "أوزوالد" كما أشيع، بل هو "بواسار" مساعد "جول رونتان".

- ما الذي ترويه؟ قال "باربوزان" ساخراً.

- برأيي المتواضع، قال "ميرون"، فإن "هوغو" المسكين هذا قد فقد رشده.

رفعت "لادوكول" إصبع الانتقام باتجاه "آميلي" وقالت:

- وهذه غلطة هذه الفتاة، فقد لوَّثت عقله!

إن مقهى "ديزار" ملحق بالفندق الكبير. إنه يقع في الطبقة الأرضية من هذا البناء القديم، وقد أعيد ديكوره عام ١٩٠٣ على يد المعلم "شاسي دوماردوريه". أما جبس اللوحات الإيطالية الطراز فيعود إلى الفنان البندقي "بولو مونتان". وكان هناك تمثالان خشبيان من صنع النحات "نيكولا بوريفاج" على جانبي الصندوق الأصلي الذي لم يعد موجوداً الآن. كانا تمثالين لربة الجمال "فينوس" وهي خارجة من الحمام. ومنذ ١٩٤٥، يمكن مشاهدتهما في متحف "جريفان".

- قل لي، يا "هوغو"، أين يقود هذا الدرج؟

- إلى شقة السيدة "بيرت". ولكن لا تقلقي، فالمفتاح موجود معي.

٣١

أين حصل ذلك؟ أين حصل ذلك حقاً؟ منذ رحيل المحسنة إليه، ونهاية طفولته، لم يعد "هوغو" قط إلى شقة السيدة "بيْرت". لم يأخذ أحد مكان السفيرة المهيبة، تلك الممثلة الداعرة في "فولي باريروس"، والمسافرة المصرة على ارتكاب الذنوب في جميع محيطات العيش المقدس.

عندما أدار المفتاح ودفع الباب، تعرَّف إلى الممر المغطى بالسجاجيد الصينية، هذا الممر الذي كانت السيدة "بيرت" تدعوه "مدخل البائعين الجوالين". حشرت "آميلي" جسدها النحيل بجسد رفيقها. إذ كانت الصور تخيفها، ولا سيما صورة بوذا الكبير ذي الاثنين والعشرين ذراعاً والموجودة مقابل المدخل. وعيون "آفالوكيتشفارا" الغاضبة التي تلمع في الظل مهددةً المتطفلين. وإلى جانبها عاد موكب الخيول والأيائل. أين كان يذهب عدْوَاً؟ نحو الجبال أم نحو البحيرة؟ أم نحو قصر البارون "ميدي" المهدَّم؟

- اصغِ جيداً، قال "هوغو". أتسمعينهم؟ إنها مطايا إخوتك "الموشيشاناريين". إنهم يركضون نحو آفاق جديدة. تذكرينهم، أليس كذلك؟

هزت "آميلي" رأسها. لم تعد ترغب في الانتماء لهذه القبيلة المقدسة، بل ترغب في أن تعهد بمستقبلها لمن عرف أن ينقلها من القفزة الكبيرة إلى المجهول. لم يعد لديها أي شيء من الحماس والشرود والحماقات والدوران حول الذات! لقد عادت الفرس إلى اصطبلها النهائي. سقط العنان. ولم يعد هنالك أي جموحٍ قوي.

- "هوغو"، أنا متعبة... لقد رميت الماء على الجمر، ونفخت الرماد. ولا تحميني أي ذكرى.

شدها إليه. فخرجت كلمات قديمة جداً من شفتيه.

- مخدع السيدة "بيرت" معبد، ذاكرة، شَرَكٌ ذو صور وروائح بالية، غير أن قصتي قد بدأت بين هذه الجدران. هناك في تجويف الموقد وعلى السجادة. انظري، إن الصالون ذا المرايا يفتح على المسرح، والمسرح يفتح على الشرفة، والشرفة على المتاهة، والمتاهة على غرفة الساعات الجدارية، ومجموعة النباتات، والحديقة التركية، والمكتبة الساحرة، والأرغن العطري. ومن هناك، إذا استدرنا إلى اليسار، نكتشف صالة الرقص الخاصة براقصي الشمع، والدمى الموسيقية، وأبعد من ذلك أحواض الأسماك، وأقفاص القرود، والمتحف الصيني، ومكبر الصوت، في حين أننا إذا استدرنا إلى اليمين، تبدأ سلسلة صالات البلياردو، والحجرة الزجاجية ذات الألعاب الشيطانية. وبعد المطابخ والورش النحاسية والفضية والأحجار الكريمة، هناك المختبر السري، المصلّى ومكتب التقطيع، البلاط الإنجليزي، والمكتب الياباني، والرواق الروماني الذي تسبح إوزتان على بحيرة في وسطه. يبقى أن نذكر الكهف البحري والبرج الفيلي، والمحكمة والمصيدة، وبرج "خذ حذرك"، وسوق الفول السوداني، وحديقة الحيوان الغريبة، وبضع أقبية أخرى لم يدخلها أي إنسان. من دون أن ننسى الكاتدرائية العائمة والمسبح الأزرق حيث ينام منذ قرون حوت يوحنا الشهير.

كانا يتقدمان في الذاكرة. كانت الذاكرة تنسحب إلى زمن يعود من جديد. الطفولة! الطفولة دوماً! وهذا الحشد من الناس الجديين الذين يمنعونك من إيجاد الخيط...

- هه، انظري!

كانت المرآة الكبيرة فوق الموقد تطيل مرأى الصالون، وإنه لصالون آخر فيه تماثيل حية، وستائر زرقاء تحركها نسمة خفيفة، وهناك في صدر الصالون، مرآة أخرى أيضاً... على مد النظر!

كانت "آميلي" تتقدم. وتتلاشى مخاوفها شيئاً فشيئاً. في حين تفوح في الهواء رائحة الشوكولا الساخنة.

- هنا، قال "هوغو"، هنا كنت أفتح كتب الصور. هنا كانت الجنيات يزقزقن وينتظرنني.

كان يريها المكان من جانب الأريكة الآخر. أليس هذا غريباً؟ كان يحلم بهذه اللحظة منذ سنوات، وها هو ذا قد عاد. ولكن من ذاك المتمدد هناك على السجادة، حاملاً لقمة بيده، ومتصفحاً الألبوم المصور الخاص بالزمن القديم؟

- "راستابان"! ظننتك ميتاً، قتيلاً!

نهض البطل. حرك شعره الطويل الأشقر. وعيناه الزرقاوان تشعان بفرح العثور على صديقه القديم.

- ألا تعلم أنني خالدٌ لأنني أموت غالباً؟

جملة فخمة نوعاً ما، حمقاء بما فيه الكفاية، استعارها من "رالف آبيركومبري" (نظرة الأصم، صفحة ٢١٣). ولكن أهذه هي الغرابة حقاً؟

قدَّم "هوغو" "آميلي" إلى "راستابان". أيكون كل منهما يعرف الآخر سابقاً؟ هيا عليك أن تعلم! فهناك الكثير من الطبقات التي تراكمت عبر الزمن!

- ماذا جاء كينيدي وستالين يفعلان هنا؟ سأل "هوغو".

- هناك حكايا فاحشة تندس في شعورنا مثل حلم إنسان آخر في أعماق نومنا، قال الشاب الأبدي مقلباً بهدوء صفحات كتاب "ماجي لوكت".

- و "آبيركومبري"؟

- بف! إنه مجرد كاتب نص لا محسوس مثل حياتنا: شعاع قمر على صفحة بحيرة.

ثم أنشد بصوت شبه مسرحي:

"غبار الزمن
هناك سر داخلي
يُكتشف عبر النافذة الداخلية
في قلب القلب
في بعيد قريب الدم
عملية داخلية خارج الأشلاء
كلمة قادمة أخرى
منمقة في الكلام الجوال".

كان الليل يهتز خلف الستائر الثقيلة.

- اسمعا صوت جنية البحر! هتفت "آميلي". رست سفينة "ماري - جان" في المرفأ، مرة أخرى، وإلى الأبد.

- والآخرون؟ سأل "هوغو".

- ليسوا سوى أقنعة فارغة، أكد "راستابان". إذا كانوا يجهلون المحيط فكيف تريد أن يحملهم الموج؟ وفضلاً عن ذلك فهم يشتبهون بك. تعالا واتبعاني!

دخل "هوغو" و "آميلي" في الممر الكبير الذي يفضي إلى الرصيف في نهايته. عما قريب يسمعان صراخ النوارس. ونسمة الصباح تلاعب شعر هذين الطفلين. هناك تنتظرهم السيدة "بيرت" كبيرةً خفيةً متكئةً على الدرابزين.

ثمة جوقة كانت تنشد أنشودة بعنوان: "كبيرٌ هو الحلم"!

خاتمة

هناك شخصيات لا يستطيع المؤلف أن ينفصل عنهم بسهولة. أتعتقدون أن الأمر قد انتهى معهم؟

إنهم يأتون ليجلسوا بلا تكلف على حافة سريرك، يتشبثون بحيث يسحبونك من لحيتك أو أذنيك، يضربون على البلاط مكشّرين، يتدحرجون في المدخنة، ويشكلون كرنفالاً لا يرحم. والمفارقة أننا لا نستطيع إسكاتهم إلا إذا تركناهم يتكلمون!

انتهيت إذاً بأن استسلمت للسيدة "بيرت" وعصابتها، "الراستابانيين"، "آبيركومبري" وشركائه، الهاربين لا أدري من أي صدع في دماغي. وبعد كل شيء فقد انسقت تماماً! لقد قادتنا هذه العاهرة الكبيرة فوق الزورق على متن سفينة "ماري - جان" التي لا تزال تجدف على محيط ضلالاتنا. إنه "الأدب" كما يدعوه الناس العارفون، الأدب هذه الأم الساحرة او القوادة!

لندرك أن السيدة "بيرت" قد برعت في فن تفخيخ الواقع كي تجعله يعترف بكذبته الأبدية. أهذه هي الغرابة أم الفظاعة أم التعب؟ أكانت السيدة "بيرت" قد ترددت في شبابها على "نيلز بوهر" و "لويس كارول"؟ لقد خدعتني على كل حال حين

أجبرتني على أن أضطلع بدور "هوغو" كي تجبرني على اللحاق بها.

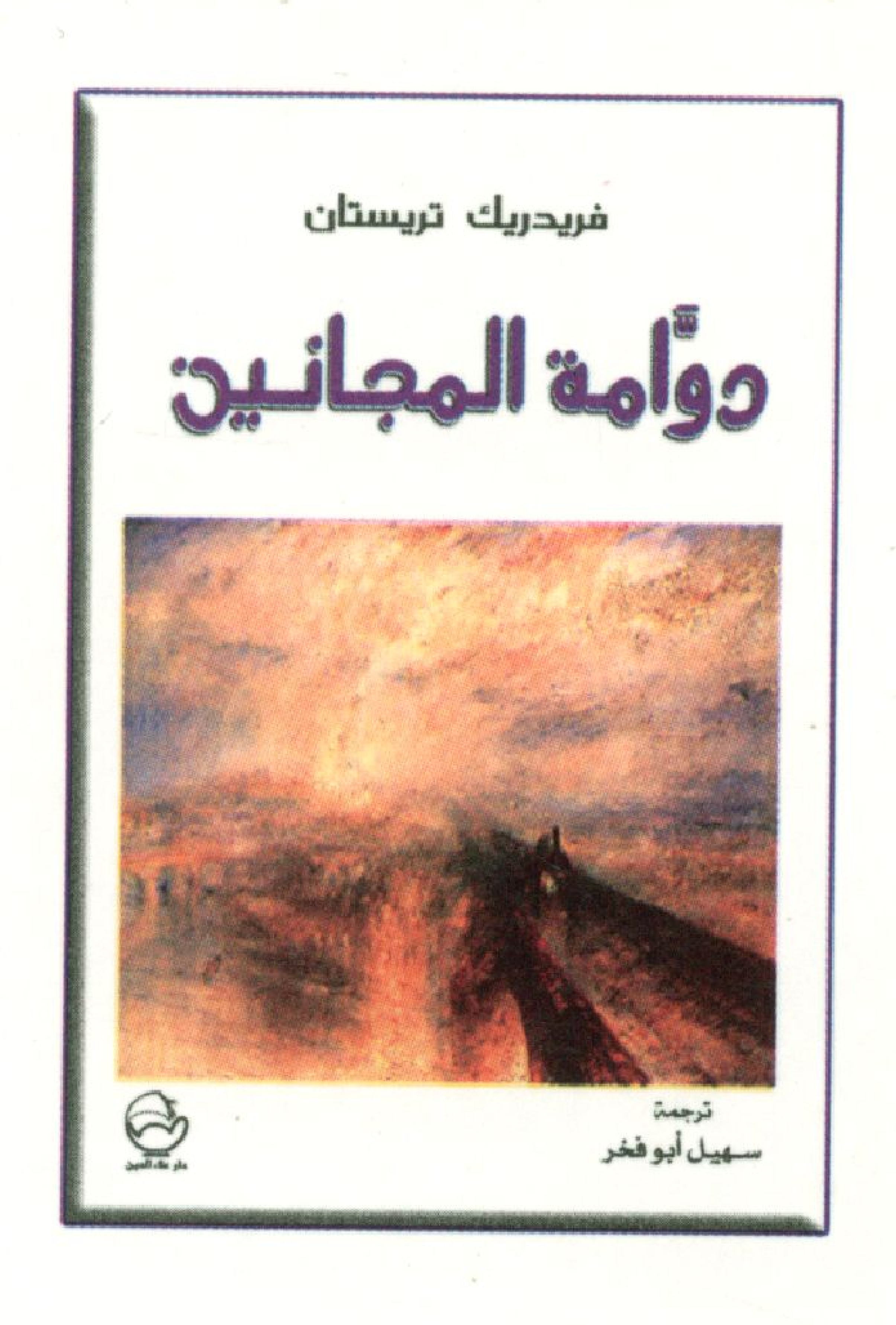
أما بالنسبة إلى "آميلي"، "ساريرا ريديفيفا"، أختي الصغيرة في طفولتي الأولى، فإليها أهدي هذه الرواية. ومهما كان رأي الآخرين، هؤلاء المانيكانات الشمعية، فهي ثورةٌ وتجلٍ دائمين، هذه الفتاة ذات النظرة النارية التي عَدَتْ ولا تزال تعدو على حصانها الوحشي.

فريدريك تريستان

من منشورات دار علاء الدين

- مزحة حمار
  عزيز نيسين
- يساري أنت أم يميني؟!!
  عزيز نيسين
- يسلم الوطن
  عزيز نيسين
- فصل الراحة
  غور فيدال
- قصص من حياة دوستويفسكي
  ف. جيلزنياك
- عودة الإنسان
  ف.م. دستويفسكي
- قليل من حرارة الشمس في الماء البارد
  فرانسواز ساغان
- ٩٩ فرنكاً
  فريدريك بيغبيدير
- نوافذ على العالم
  فريديريك بيغبيدير
- الأرواح الرمادية
  فيليب كلوديل
- حفيدة السيد لنه
  فيليب كلوديل
- لعبة حب مجنون
  كريستين أوربان
- عائلة كاردينال
  لدوفيك هاليفي
- الخطيئة الأولى المميتة
  لورنس ساندرز
- قلب كلب
  ميخائيل بولغاكوف
- اليعازار
  ميشيل تورنيي
- جيل وجان
  ميشيل تورنيي
- فالس الوداع
  ميلان كونديرا
- ابنة الكاتب
  هنري ترويا
- النبيلة الروسية
  هنري ترويا
- الوشاة
  هنري ترويا
- رفاق شقائق النعمان
  هنري ترويا
- سيدات سيبيريا
  هنري ترويا
- صوفيا أو نهاية المعارك
  هنري ترويا
- مجد المهزومين
  هنري ترويا
- محاكمة سقراط
  يوري فانكين

Le manège des fous



Le manège des fous

"هـزت كتفيهـا؛ قطبـت جبينهـا واسـتعادت وضعيتهـا وعيناهـا شـاخصتان في المرآة. كانـت تمضـي معظـم وقتهـا في التمعـن في اسـتدارة وجهها، وغزارة شعرها، ذلك أن لديها شَـعْرَاً رائعاً مضفوراً وأصهب، شَـعْرَاً قال عنه الشويعر "ميرون" أنه مغيبُ شمسٍ على بدرٍ مكتمل".

بطـل هـذه الروايـة رجلٌ يخلـط بين الواقـع الموضوعـي والواقـع الخيالـي بامتياز.. فيه شـيءٌ من الطفولة والحلـم والجنون. ترى هل تحمل الشخصيات الأخرى طفولتها وحلمها وجنونها مثله؟!

بأسـلوب أخّاذ، صاغ الكاتـب "فريدريك تريسـتان" رواية الجنون الذي يعكس طيبة البشر ووحشيتهم في آن معاً.

ISBN 978-9933-18-054-6





يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع - سورية - دمشق
ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس [illegible] - بريد إلكتروني ala-addin@mail.sy